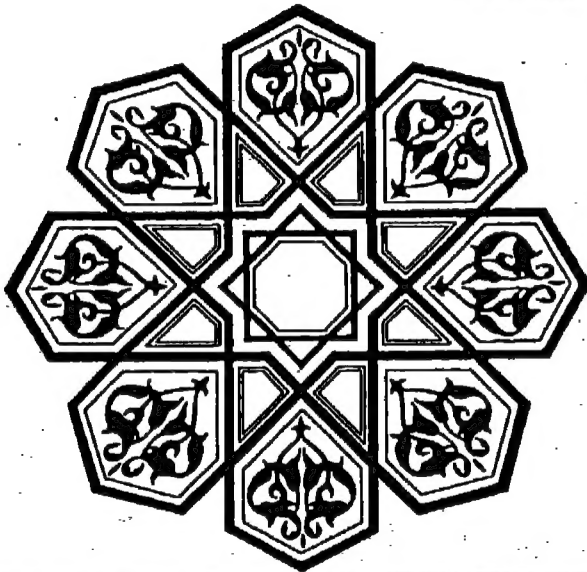


الرسائل النادرة

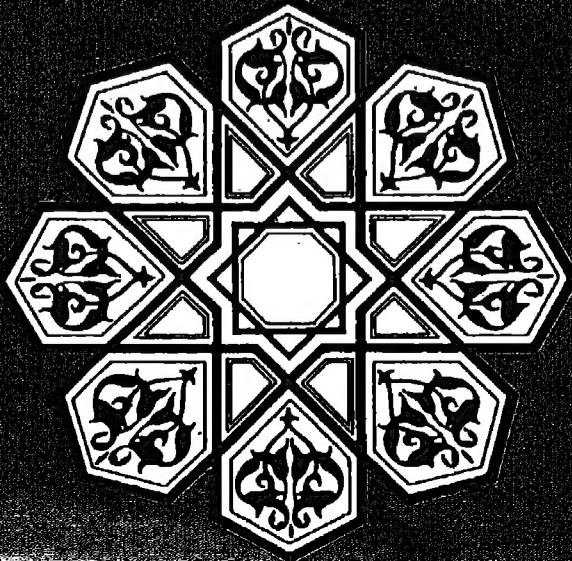
أدب الوزير الماوردي المعروف بقوانين الوزارة وسياسة الملك



لقاضي القضاة أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي
المتوفى سنة ٤٥٠ هـ
صاحب كتاب أدب الدنيا والدين والأحكام السلطانية وغيرها

صححه

حسن الهادي حسين



الرسائل النادرة

أدب الوزير الماوردي المعروف بقوانين الوزارة وسياسة الملك

لقاضى القضاة أبى الحسن على بن محمد بن حبيب الماوردي

المتوفى سنة ٤٥٠ هـ

صاحب كتاب أدب الدنيا والدين والأحكام السلطانية وغيرها

صححه

حسن الهادى حسين

الناشر مكتبة النخاس بالعامرة

الطبعة الأولى سنة ١٣٤٨ هـ - ١٩٢٩ م

الطبعة الثانية سنة ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

حقوق الطبع محفوظة لمكتبة الخانجي

الإيداع ٩٤/٩٢٦٦

الترقيم الدولي

I-S-B-N

977-505-095-15

فهرس مطالب الكتاب وفصوله

١	كلمة الناشر
ج	ترجمة مؤلف الكتاب
٢	مقدمة الكتاب والكلام على خسر الوزارة ووظيفة الوزير
٣	مطلب في وجوب تمسك الوزير بالدين والعدل وأنهما أساس الملك
٤	الكلام على العدل والاحسان وأنهما مادة الوزير وضدهما الجور والاساءة
٤	مطلب في تفسير العدل في الأقوال وأثره والروية في معاني الكلام
٥	الكلام على العدل في الأفعال وتفسيره وأثره في حالتي الرضا والغضب
٦	• على الوعد والوعيد وقانون الوزير فيهما
٦	• على الغضب وذمه ووجوب تباعد الوزير عنه
٧	مطلب ومن نتائج الغضب اللجاج ومساواته له في المعرة والمضرة
٧	• في الكلام على الجد والهزل وأنهما ضدان متافران
٨	• ومن نتائج الجد الهيبة وأنها أس السلطنة
٨	• في الاسترواح ببعض الهزل للاستعانة على مصابة الجد
٩	الكلام على الصدق والكذب وأن الأول من لوازم العقل والثاني من غرائز الجهل
٩	فصل في الوزارة واشتقاق اسمها من معناها
١٠	الكلام على تقسيم الوزارة إلى وزارتي تفويض وتنفيذ وأنها الخ.
١٠	الكلام على التنفيذ وأنه أربعة أقسام الأول منها ما صدرت به أوامر الملك
١٠	الثاني من أقسام التنفيذ ما اقتضاه رأى الوزير
١١	الثالث . . . ما صدر عن خلفاء الوزير على الأعمال
١٢	الرابع . . . تنفيذ أمور الرعايا على ما ألفوه من العادات
	والمعاملات

- ١٣ الكلام على الدفاع وأنه مهمة الوزير ويشتمل على أربعة أقسام
- ١٣ القسم الأول منه دفاعه عن الملك من أوليائه
- ١٣ الثاني » » المملكة من أعدائها
- ١٥ الثالث » » نفسه من أكفائه
- ١٧ الرابع » » الرعية من خوف واختلال
- ١٨ فصل في الكلام على الاقدام وهو من مزايا الوزير وصفاته وينقسم الى قسمين
- ١٩ القسم الأول من الاقدام على جانب المنافع
- ٢٠ الثاني » » على دفع المضار
- ٢١ فصل في الحذر وتفسيره والكلام عليه من أربعة وجوه
- ٢٢ الوجه الأول منه الحذر من الله تعالى وأنه عماد الدين
- ٢٢ الثاني » الحذر من السلطان والكلام عليه من ثلاثة أقسام
- ٢٣ القسم الأول » حذرك بأن لا تعول على الثقة في ادلال واسترسال
- ٢٣ الثاني » حذرك في أن تساعد على مطالبه ومحابه
- ٢٤ الثالث » حذرك في أن تدب عن نفسه وملكه ما استطعت
- ٢٥ مطلب في الكلام على حقوق الوزير على السلطان وحقوق السلطان عليه
- ٢٧ الوجه الثالث من وجوه الحذر الحذر من الزمان وتقلبه
- ٢٩ الرابع » » الحذر من أهل الزمان وتقسيم أطوار الانسان
- ٣١ فصل في التقليد والعزل وهما من وظائف وزير التفويض والكلام على التقليد وأنه ضربان
- ٣٢ الضرب الأول منهما وهو تقليد التقرير ويشتمل على ثلاثة أقسام
- ٣٣ الضرب الثاني منهما » » التدبير ويشتمل على تدبير الأموال وتدبير الأجناد

- ٣٥ فصل في الكلام على العزل وهو ضربان ما كان من غير سبب
وما كان لسبب
- ٣٧ الكلام على وزارة التنفيذ وهي الثانية وتختص بأربعة قوانين
- ٣٧ الأول من قوانينها السفارة بين الملك وأهل مملكته
- ٣٨ الثاني من قوانينها الرأي والمشورة
- ٤١ الثالث من قوانينها عناية الوزير بالملك
- ٤٢ الرابع من قوانينها حرص الوزير على مصالح الملك
- ٤٣ الكلام على ما بين الوزارتين من الاختلاف في أصل التقليد
- ٤٤ فصل فيما تشترك به الوزارتان من الحقوق والعهود والكلام على
الحقوق وأنها ثمانية
- ٤٦ الكلام على العهود وقد أتى بها المؤلف على سبيل الوصية فصولاً
مسترسلة مقفاة وأنا أذكرها على ترتيبها بمعناها
- ٤٦ وصيته للوزير بالمراقبة لله تعالى في السر ومراقبة سلطانه في خلوته
- ٤٧ " " أن يكون خبيراً بالرعية متطلعاً على أحوالهم
- ٤٧ تحذيره للوزير من الكذب
- ٤٨ وصيته له باختبار أحوال من استكفاه ليعلم عجزه من كفايته
- ٤٨ " " باقتصاره على الأعوان بحسب الحاجة إليهم
- ٤٨ " " بتهديب نفسه وتنزيهاها عن الطمع
- ٤٩ " " على مشاركة الأعمال بنفسه
- ٤٩ " " في وقت الفراغ براحة الجسم واجتماع الخاطر
- ٥٠ " " بخفض جناحه لمن فوقه وتوطئة كنفه لمن هو أدنى منه
- ٥٠ " " بالشكر على النعمة والصبر في الشدة واستدامة مودة مواليه
- بالاحسان اليه وعدوه بالاحتراز منه وأن لا يعول على التهم والظنون

٥١ وصيته له باختبار حال من اشتبه أمره عليه والأخذ بالتودد الى الناس

٥١ « « بالمشورة ومن يستشير وما يجب في ذلك

٥٢ « « بكتمان أسرارهم وأن يختار لها من يثق بدينه إن كان لا بد

من الإذاعة

٥٣ أمره له بالتثبت فيما لا يقدر على استدراكه وحثه على المعروف

ما استطاع اليه

٥٣ تحذيره من مدح المتملقين ومداجاة المنافقين

٥٤ وصيته له باحماذ السلطان وشكر الرعية والقيام بالاحسان اليهم

٥٥ « « بالصبر على طلب أرباب الحوائج وأن يسعهم بحاله وحثه

على اصطناع المعروف

٥٦ وصيته له بأن يكون قدوة لصلاح الأئمة بصلاح نفسه ويحذره عواقب

الظلم ودعوة المظلوم وابتعاده عن الشهوات وأن لا يكون عبداً لها

٥٧ وصيته له بالحد من الزمان والاحتراز من الاغترار به وأن يكون

صلاح عمله ذخره وجميل سيرته أثره

٥٨ وصيته له بأن يكون جميل فعله غنمه في باقي أيامه وقد ختم تلك الوصية

بالحديث المروي في أشرط الساعة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم المرسلين ، وبعد فما نحن قد اخترنا لك أيها القارئ العزيز هذه الرسالة النفيسة الموسومة بقوانين الوزارة لتكون الحلقة الخامسة من سلسلة الرسائل النادرة التي تنشرها (مكتبة الخانجي) . وما اخترناها إلا لشهرتها وذيوع اسمها في كتب التراجم وموضوعات العلوم . وحسبك أنها من تصنيف امام كبير من أئمة الأدب والبيان ومحقق جليل من شيوخ الحكمة والتشريع ، وأعني به : أبا الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي ، مؤلف (أدب الدنيا والدين) و (الأحكام السلطانية) و (الحاوي) و (الاقتناع) وغير ذلك من أمهات الكتب في الفقه والتفسير والأدب والسياسة . وقد أسميناها (أدب الوزير) لأنها في الواقع فصول رائعة في آداب الوزارة ورسومها وأحكامها وما للوزير وما عليه نحو سلطانه وبلاده ونفسه . وسوف نجد لها متمشية في أسلوبها الرائع ومباحثها الجليلة وفق الخطة التي سار عليها في كتابه الشهير : (الأحكام السلطانية) . فالرسالة إذن تمة مباحث ذلك الامام الجليل في فن السياسة وتدير الملك . وكلا الكتابين مرآة صادقة لتفكير العالم الاسلامي في هذا الفن الجليل الذي أصبح موضع عناية المفكرين من كتاب هذا العصر .

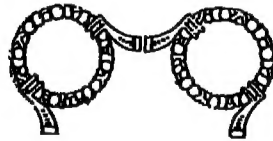
وقد كان لكتابه الأول (الأحكام السلطانية) حظ وافر من عناية

(ب)

الناشر بن فطبع مراراً في القاهرة وسواها . أما هذه الرسالة فبقيت محرومة
من هذه العناية ولم تطبع قبل هذه الطبعة — فيما نعلم — مع شدة ارتباطها
بالكتاب الأول . وانا لنغبط اليوم إذ نتقدم بها لمحبي الكتب والرسائل من
آثار السلف الصالح ويسرنا أن نضيفها إلى مجهود من سبقونا في نشر
(الاحكام السلطانية) . وقد كان اعتمادنا على نسخة مخطوطة في دار الكتب
الماسكية ضمن مجموعة من كتب العلامة الشنقيطي والله المسئول أن يمدنا
بالتوفيق وحسن المعونة فيما قصدنا .

عبد العزيز أمين الخانجي

٥ صفر سنة ١٣٤٨



(ج)

ترجمة مؤلف الكتاب

هو أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري المعروف بالماوردي ولقبه أقضى القضاة . ولد بالبصرة وتوفي في بغداد ودفن فيها في مقبرة باب حرب ، والكتب التي اعتمدنا فيها على هذه الترجمة وهي : (وفيات الأعيان) و (الوافي بالوفيات) و (معجم الأدباء) و (تاريخ أبي الفداء) و (طبقات الشافعية) اتفقت جميعها على أن وفاته كانت عام ٤٥٠ هجرية بعد أن بلغ ستاً وثمانين سنة ؛ فيكون ميلاده بناءً على هذا الإجماع سنة ٣٦٤ هجرية . قطع الماوردي مراحل حياته الطبية الحافلة بجلائل الأعمال في البصرة وبغداد وأعمالهما من الأمصار القريبة . وقد كانت تلك الجهات في ذلك الوقت مسرحاً للفتن والدسائس من الداخل والخارج ، ومقام الخلافة في بغداد من الضعف والوهن وخور العزيمة ، بحيث أصبح الخلفاء آلات مسخرة وأدوات لا قيمة لها بين الترك والديلم . وإليك ما يقوله أبو الفداء في حوادث سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة :

« وفي هذه السنة قبض بهاء الدولة بن عضد الدولة على الطائع لله عبد الكريم وكنيته أبو بكر بن المفضل المطيع لله بن جعفر المقتدر بن المعتضد ابن الموفق بن المتوكل ، بسبب طمع بهاء الدولة في مال الطائع . ولما أراد بهاء الدولة ذلك أرسل إلى الطائع وسأله الإذن ليحدد العهد به فجلس الطائع على كرسي ودخل بعض الديلم كأنه يريد تقبيل يد الخليفة فغذبه من سريره والخليفة يقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ويستغيث فلا يغاث وحمل الطائع إلى دار بهاء الدولة وأشهد عليه بالخلع » وكان الشريف الرضي حاضراً مهزلة القبض على الطائع وخلعه فبادر بالخروج من دار الخلافة وقال في ذلك أياتاً من جملتها :

(د)

أسميت أرحم من أصبحت أغبطه لقد تقارب بين العز والهون
ومنظر كان بالسراء يضحكني يقرب ما عاد بالضراء يبكي
وانك لتقرأ من أخبار ذلك العصر الشيء الكثير عن الفتن بين الشيعة
وأهل السنة .

ففي أوائل حياة الماوردي كانت فتنة القرامطة ومذبحتهم الكبرى
في الكوفة ؛ وفي أواخر أيام صاحب هذه الرسالة كان اشتداد نفوذ
الباطنية وشيوع دعوة الحسن بن الصباح ؛ وفي هذه الآونة كانت دولة
بني حمدان في حلب وحر و بهم ومنازلهم ؛ وفي هذه الفترة من التاريخ
الاسلامي كانت حكومة الفاطميين في مصر أيام خلافة العزيز بالله ثم الحاكم بأمر الله .
أما في الاندلس فكانت خلافة هشام بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر وحروب
المنصور بن أبي عامر وانتصاراته التي شرفت الحكم الاسلامي في تلك الديار .
وقصدنا من هذا الاجمال لحوادث تلك الايام أن ندلك على روح العصر في
الايام التي عاشها الماوردي . ومن أعجب ما يستوقف النظر أن تكون أيام
هذه الفوضى من أخصب العصور الاسلامية في الانتاج الفكري في العلوم
والفنون والآداب . ولعل السبب في ذلك هو قرب ذلك العهد من النهضة
العلمية الكبرى التي وضع الرشيد والمأمون أساسها في أيام خلافتيهما الجليلة
الشان ، تلك الأيام التي تعد بحق العصر الذهبي للإسلام .

مضى ذلك العهد الذهبي ، عهد الحركة العلمية الكبرى ، عهد التدوين
والترجمة ؛ وهبت أعاصير السياسة والخلافات مما لا مجال لسرده في هذه
العجالة . ولكن بقي في أيدي الناس كنوز ذلك العصر ، ومجهودات من
تقدمهم من علماء السلف الصالح . أضف إلى ذلك أن الجامعات الاسلامية الكبرى
في بغداد والقاهرة وقرطبة ونيسابور وبخارى ، كانت لا تزال محتفظة بنشاطها
وجهودها في سبيل نشر العلوم وأنوار الحكمة والآداب العالية .

(٥)

و فوق كل ما تقدم فإن حكومة آل بويه في بغداد، وحكومة آل حمدان في حلب ودمشق؛ وحكومة الفاطميين في مصر، وحكومة المنصور بن أبي عامر في الاندلس؛ كانت حكومات مشهورة - رغم مشاكلها الداخلية - بتعزيد العلوم والفنون وتقريب العلماء من مجالسها والأخذ بأيديهم وتشجيعهم. فلا غرو ولا عجب أن ينبغ في هذا العصر من الفلاسفة والحكماء أمثال: ابن سينا؛ والحيام؛ والمعري. ومن النحويين واللغويين أمثال: القاضي أبو سعيد ابن عبدالله السيراقي النحوي مصنف شرح كتاب سيويه؛ والحسين ابن زكريا اللغوي صاحب كتاب المجمل، وأبو علي الحسن بن احمد ابن عبد الغفار الفارسي صاحب الايضاح والتذكير والمقصود والمدود، وعثمان بن جنى النحوي الموصلي مصنف اللمع؛ وأبو نصر اسماعيل بن احمد الجوهري صاحب الصحاح. ومن المحدثين والأئمة أمثال الماوردي «مؤلف الكتاب»، والصيمري، والاسفرائيني، والقاضي أبو الطيب الطاهري، وأبو طالب محمد بن غيلان صاحب الأجزاء المعروفة بالغيلانيات؛ وأبو الحسين أحمد بن محمد القدوري البغدادي الحنفي صاحب المختصر المعروف به؛ والبيهقي، والقشيري، وابن مخلد الاندلسي. والقاضي أبو بكر بن الباقلاني، والحافظ أبي نعيم صاحب كتاب حلية الأولياء، والحاكم النيسابوري امام أهل الحديث في عصره. ومن الأدباء والكتاب أمثال: أبي اسحق إبراهيم الصابي، والخطيب بن نباتة الفارقي، والصاحب بن عباد؛ وابن العميد الكاتب الشهير، والحاتمي صاحب الرسالة الحاتمية التي بين فيها سرقات المتنبي، والثعالبي صاحب التصانيف المشهورة. ومن الشعراء المجيدين أمثال: أبي الحسن الأنباري صاحب المراثية المشهورة التي مطلعها (علو في الحياة وفي المات)؛ وأبي الحسن محمد بن عبدالله السلاحي ومهيار الديلمي، والشريف الرضي، وأبي القاسم بن طباطبا.

كل هؤلاء الأعلام النوابغ كانوا معاصرين للماوردي وحسبنا أن نسرده

(و)

أسماءهم للدلالة على روح ذلك العصر من الوجهة العلمية . وقد ذكرنا لك فيما سبق أن من العوامل التي أدت الى إحياء هذه النهضة تشجيع الحكام للعلماء العاملين ، وقد كان للماوردي نصيب كبير من هذا التشجيع وكان عظيم القدر ، مقدماً عند السلاطين من آل بويه وعند الخلفاء العباسيين .

وقد ذكر أبو الفداء في حوادث سنة ٤١٩ هـ أنه عندما توفي القادر بالله وجلس في الخلافة ابنه القائم بأمر الله أرسل القائم أبا الحسن الماوردي الى الملك أبي كاليجار فأخذ البيعة عليه القائم وخطب له في بلاده وذكر كذلك في حوادث ٤٤٣ هـ أى قبيل وفاة الماوردي بسبع سنين أنه وقعت الوحشة بين القائم وجلال الدولة على أمر من أمور المتقاليد فأرسل القائم أبا الحسن الماوردي يوسطه ولم تنفع وساطته . والحادثان تدلان على ناحية جليلة من نواحي حياة الامام الماوردي من وجهة اتصاله عملياً بالحياة السياسية في عصره ، وتزيد في نظرنا من قيمة كتابيه الأحكام السلطانية وقوانين الوزارة . لأنهما لم يكتبتا الا عن روية ولم يصدرا إلا عن حكمة وتجربة ودراية . ويؤخذ من مقدمة الأحكام السلطانية أنه لم يشرع في كتابته إلا بعد أن عظم قدره وأصبح مقدماً عند السلطان حيث لم يصنفه إلا امتثالاً لأمره فانه يقول : « ولما كانت الأحكام السلطانية بولاية الامور أحق : وكان امتزاجها بجميع الأحكام يقطعهم عن تصفحها مع تشاغلهم بالسياسة والتدبير ، أفردت لها كتاباً امتثلت فيه أمر من لزمت طاعته ليعلم مذاهب الفقهاء فيما له منها فيستوفيه الخ .. » ولهذا الكلمات قيمتها في دحض تلك الفرية التي ذكرها الصفدي في الوافي بالوفيات وابن خلكان في وفيات الأعيان ونقلها صاحب طبقات الشافعية بتحفظ وتناقص : في أن الامام الماوردي لم يظهر شيئاً من تصانيفه في حياته وإنما جمعها كلها في مكان واحد ولما دنت وفاته قال لشخص يثق اليه : « إن كتي لم أظهرها لاني لم أجد نية خالصة لله تعالى لم يشبها كدر فاذا عاينت

(ز)

الموت و وقعت في النزاع فاجعل يدك في بدي فان قبضت عليها وعصرتها فاعلم انه لم يقبل مني شيء منها فاعمد الى الكتب وألقها في دجلة وان بسطت يدي ولم أقبضها فاعلم أنها قبلت وأنى قد ظفرت بما كنت ارجوه من النية الخالصة ، وكان بعد ذلك أن بسط يده فظهر ذلك الانسان كتب الامام .
ولامراء عندي في أن هذا الحديث محتلق فان اماما جليل القدر مثل الماوردي وفي عصر مثل عصر الماوردي ، وقد اشتدت فيه المنافسة بين العلماء والادباء والكتاب ، تربأ به همته العالية أن يفكر في مثل هذا الأمر . وما لنا نذهب بعيداً وهامى مقدمة كتابه الأحكام السلطانية تدل على أنه ألفه امثالاً لأمر من لزم طاعته . وقد ذكر الصفدي قبل هذه الحكاية قصة أخرى تدل على أن تصانيف الماوردي كانت معروفة ومشهورة بل تدل على أنه كان ينافس غيره من علماء العصر في التأليف والتصنيف فان الصفدي يقول في الوافي بالوفيات : « وكان القادر قد تقدم الى أربعة من الأئمة في المذاهب الاربعة ليضع له كل واحد مختصراً في الفقه فوضع الماوردي الاقناع ووضع القدوري مختصره ووضع عبد الوهاب المالكي مختصراً ووضع أحد الحنابلة أيضاً مختصراً وعرضت عليه فخرج الخادم إلى الماوردي وقال له . قال لك أمير المؤمنين : حفظ الله عليك دينك كما حفظت علينا ديننا » .

ومن مصنفاته تفسير القرآن وسماه النكت (١) . وكتاب الحاوي في الفقه يدخل في عشرين مجلداً (٢) ، والاقناع وقد مر ذكره ، وأدب الدنيا والدين ،

(١) موجود منه نسخة في المكتبة العمومية بميدان بايزيد بالقسطنطينية

(٢) موجود في مجموعة كتب أحمد طلعت بك نسخة كاملة بعض أجزائها من

مخطوطات المائة السادسة وقد آلت تلك المجموعة الى دار الكتب المصرية

(ح)

والاحكام السلطانية (١)؛ وتعجيل النصر وتسهيل الظفر؛ وكتاب في النحو (٢).
وانه لموفق في جميع كتبه لسهولة عبارته وحسن تعبيره وجميل ديباجته
ومازال كتاب أدب الدنيا والدين المقرر للطالعة في المدارس المصرية من أروج
الكتب في عصرنا هذا . وقد أجمع الذين ترجعوا حياته أنه كان اماماً ثقة في
الفقه والتفسير ، ورعاً في دينه ، مجاهداً لنفسه مجتهداً لا مقلداً . ذكر الصفدي
في (الوافي بالوفيات) أنه كان قد سلك طريقاً في توريث ذوي الارحام
القريب والبعيد سواء لجاء اليه كبير من الشافعية فقال له اتبع ولا تبندع . فقال:
« بل اجتهد ولا أقلد » فانصرف عنه .

ومن كلام الماوردي الدال على دينه ومجاهدته لنفسه : ما ذكره في
كتاب أدب الدنيا والدين ، فقال : « وما أنذرك به من حالي ، اني صنعت
في البيوع كتاباً جعلته ما استطعت من كتب الناس ، وأجهدت فيه نفسي ؛
وكررت فيه خاطري حتى اذا تهذب واستكمل ، وكدت أعجب به ؛
وتصورت أني أشد الناس اطلاعاً بعلمه ؛ حضرتي وانا في مجلسي اعرابيان ،
فسألاني عن بيع عقده في البادية ، على شروط تضمنت أربع مسائل لم أعرف
لشيء منها جواباً ، فاطرقت مفكراً ، وبحالي وحالهما معتبرا . فقالا : أما عندك
فيما سألتك جواب ، وأنت زعيم هذه الجماعة ؟ فقلت : لا ، فقالا : إيها لك !..
وانصرفا . ثم أتيا من قد يتقدمه في العلم كثير من أصحابي فسألاه ، فأجابهما
مسرعاً بما أقنعهما ، فانصرفا عنه راضيين بجوابه . حامدين لعلمه . إلى أن
قال : « فكان ذلك زاجر نصيحة ، ونذير عظيمة ، نذلل لهما قياد النفس ،
وانخفض لهما جناح العجب » .

(١) أول من عني بطبعه الموسيو مقس أنقر وطعها بمدينة س سنة ١٨٥٣ م

سنة ١٢٦٩ هـ .

(٢) قال ياقوت في معجم الأدباء : اطاعت عليه وهو في مجلد حجم الايضاح لاني على الفارسي

(ط)

ومن المسائل البارزة في حياة الماوردي اتهامه بالاعتزال . قال ابن الصلاح : هذا الماوردي عفا الله عنه وقد كنت لا أحقق ذلك عليه ، وأتأول له ، وأعتذر عنه في كونه . يورد في تفسيره في الآيات التي يختلف فيها أهل التفسير ، تفسير أهل السنة وتفسير المعتزلة : غير متعرض لبيان ماهو أحق منها ، ويقول صاحب طبقات الشافعية تعقياً على قول ابن الصلاح : « وأقول لعل قصده إيراد كل ما قيل من حق أو باطل ، ولهذا يورد من أقوال المشبهة أشياء مثل هذا الإيراد ، حتى وجدته يختار في بعض المواضع قول المعتزلة وما بنوه على أصولهم الفاسدة » إلى أن يقول : « ثم هو ليس معترلاً مطلقاً فإنه لا يوافقهم في جميع أصولهم مثل خلق القرآن كما دل عليه تفسيره في قوله عز وجل : (وما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث) وغير ذلك ويوافقهم في القدر وهي البلية التي غلبت على البصريين وعبوها قديماً ، إلى هنا ينتهي قول ابن الصلاح وقول صاحب الطبقات في مسألة اعتزال الماوردي .

ولعمري إن هذه الأقوال لتدلنا على مزية جليلة من مزايا الإمام الماوردي وترفع بقدره في نظرنا لأنها برهان ساطع على أن الرجل لم يكن رجل علم وأدب فحسب . بل هو فوق ذلك وأفضل من ذلك ، رجل بحث وتحقيق ورجل البحث يطالب الحقيقة . والحقيقة هي ضالته أينما وجدها فليس بضائره أن يجد وجهاً من وجوها في أصول المعتزلة : وإن يوافقهم عليها وأن يجتهد في غيرها من الحقائق عند أهل السنة ، لأنه كان من أئمة المجتهدين وكبار الباحثين في الحقائق ، شأنه في ذلك شأن جميع العلماء العاملين من رجال السلف الصالح ، طيب الله ثراهم وألهم في نفوس الشباب الناهض من أبناء العروبة حماس الاقتداء بهم

عبد العزيز أمين الخانجي

أَدَبُ الْوَزَرِ لِلْمَاورِدِيِّ
المعروف بقوانين الوزارة وسياسة الملك

..... ()

لقاضى القضاة أبى الحسن على بن محمد بن حبيب الماوردى

المتوفى سنة ٤٥٠ هـ

صاحب كتاب أدب الدنيا والدين والأحكام السلطانية وغيرها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(وبه نستعين)

قال الامام ؛ قاضى القضاة أبو الحسن ، على بن محمد بن حبيب الماوردي رحمه الله تعالى برحمته : الحمد لله على ما هدي وأرشد ، وله الشكر على ما وفق وسدد . وصلى الله على رسوله الطاهرين ، وأوليائه البررة المنتخبين ، وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد ؛ فقد التزم الطاعة من دعا إليها ، وفعل الخير من أرشد إليه ، ولئن كانا في جيلة ذوي الفضل مركزين ، فما يستغني الفطن بذكائه عن يقظة منبه ، ولا يكتفي اللبيب بحزمه عن عظة مذكر ؛ لأن الهوي معترض يخدع بغرامه ؛ ويحتجب بغمامه . وأنت أيها الوزير - أمدك الله بتوفيقه - في منصب مختلف الاطراف ؛ تدبر غبرك من الرعايا وتدبر غبرك من المملوك ؛ فأنت سائس مسوس ؛ تقوم بسياسة رعيته وتنقاد لطاعة سلطانك ، فتجمع بين سطوة مطاع وانقياد مطيع ، فشطر فكرك جاذب لمن تسوسه ؛ وشطره مجذوب لمن تطيعه وهو أثقل الاقسام الثلاثة محملاً ، وأصعبها مركباً ، لأن الناس : ما بين سائس ؛ ومسوس ، وجامع بينهما . ولك هذم الرتبة الجامعة . فأنت تجمع ما اختلف من أحكامها ، وتستكمل ما تباين من أقسامها ، ويبدك تدبير مملكة صلاحها مستحق عليك ، وفسادها منسوب اليك . تؤاخذ بالاساءة ولا يعتدك بالاحسان ، تلان لك المبادئ بالارغاب ؛ وتشدد عليك الغايات بالاعتاب ، مستظراً تستكفي اعتداد الاحسان اليك ؛ وتسلم من غب المؤاخذه لك ، ويلزمك ضدها في حق سلطانك أن لا يعتدى عليه بصلاح ملكه ، لأنك للصلاح مندوب ، ولا تعتذر اليه من

اختلاله ، لأن الاختلال اليك منسوب . واجعل اعتذارك سعيك واجتهادك ،
فلسان الفعال انطق من لسان المقال ، اظهر ورشواهده . فان عارضتك الاقدار
عذرتك القلوب ، وان لم تنطق به الافواه ، لعجز الخاق عن قضاء الحق ،
وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا يغني حذر عن قدر . وقيل
في منشور الحكم : توق كل التوقي ولا حارس من الأجل ، وتوكل كل
التوكل ولا عذر في التغرير ، واطلب كل الطب ولا تسخط لما جاب المقدور .
ولأن تكون ان ملكت اختيارك متاركا في زمان السكدر ؛ أولى من أن
تكون مغالباً للقدر . وقد قيل في منشور الحكم : ما كان عنك معرضاً ؛ فلا تكن
له متعرضاً . فان دعاك الاضطرار إلى الملبسة ، فان للزمان ولا تخاشنه . فقد
قال بعض الحكماء : من سعادة الانسان أن لا يكون عند فساد الزمان مدبراً
للزمان ؛ فسامح وقتك ان جار ، وغالطه ان ثار كما قال الشاعر :

فاخط مع الدهر إذا ما خطا واجر مع الدهر كما يجري

والله تعالى يمد بالمعونة من وفقه ، وأرجو أن تكون منهم .
واعلم أيها الوزير انك مباشر لتدبير ملك له أس . هو الدين المشروع . ونظام .
هو الحق المتبوع . وقد قيل : منازع الحق مخصوم ، فاجعل الدين قائمك ، والحق رائدك ،
يذلك كل صعب ، ويتسهل عليك كل خطب ؛ لأن للدين أنصاراً ، وللحق أعواناً ؛
إن قعدت عنك أجسادهم ؛ لم تقعد عنك قلوبهم . وحسبك أن تكون القلوب
معك . وقيل لبعض الحكماء : أي الجند أوفى ؟ قال : الدين . قيل : فأأي العدد أقوى ؟
قال : العدل . وللدين سلطان قد انقادت اليه امامته ، واستقرت عليه دعامته ،
فاجعله ظهيرا لك في أمورك ، وعونا لك على تدبيرك ، تجدد من القلوب خشوعا ،
ومن النفوس خضوعا ، فما اعتزت بملكك اليه إلا صالت ، ولا تحققت بشعاره
إلا طالت . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما من رجل من
المسلمين أعظم أجراً من وزير صالح مع امام يطيعه ويأمره بذات الله تعالى ،

واجعل الله تعالى عليك في خلواتك رقيباً ورهباً : تقودك الرغبة الى طاعته ، وتصدق الرهبة عن معصيته ، ليسلم باطنك من العيوب ، ويخلص شرك من الذنوب . وقد نفسك الى العدل ، ينقد الناس به الى طاعتك ، ويكفوا به عن معصيتك ، ويقتصروا عليه في مطالبتك ؛ فان من جازف في الاخذ جوزف في الطلب ، ومن ناصف نوصف . والعرب تقول في المجازفة من أمثالها : دخل بيتاً ما خرج منه . وقال السيد المسيح : بالمكيال الذي تكيلون يكال لكم وتزادون . وقال الشاعر :

ومن ظن بمن يظهر السوء أنه يجازي بلا سوء فقد ظن منكراً
واعلم أنك لن تستغزرموادك الا بالعدل والاحسان ؛ ولن تستندرها
بمثل الجور والأساءة ؛ لأن العدل استثمار دائم ، والجور استئصال منقطع .
وقد قيل في منشور الحكم : بالعدل والانصاف ، تكون مدة الائتلاف .
وليس يختص العدل بالأموال دون الأقوال والأفعال . فعدلك بالأموال
أن تؤخذ بحقيقتها ، وتدفع الى مستحقها ، لأنك في الحقوق سفير مؤتمن ؛ وكفيل
مرتهن ، عليك غرمها ، ولغيرك غنمها .

وعدلك في الأقوال أن لا تخاطب الفاضل بخطاب المفضول ،
ولا العالم بخطاب الجهول ، وتقف في الحمد والذم على حسب
الأحسان والأساءة ، ليكون ارغابك وارهابك على وفق أسبابهما من غير
سرف ولا تقصير ، فلسانك ميزانك . فاحفظه من رجحان أو نقصان . وقد
قال بعض الحكماء : جعل الله الانسان أفضل الحيوان ، وصير أفضل جارية
فيه اللسان ، فجعله للضائر ترجحاناً ، ولما جمعت العقول والبصائر تدياناً ، وبين
الحق والباطل فرقاناً ، ولقد قال الاحنف بن قيس : « النطق مسفرة والصمت
مسترة » ، والكلام روية تتقدم على المعاني دون الألفاظ ، فكل المعاني الى
رويتك ، وفوض الألفاظ الى بديهتك ، فان ابتكار المعاني خطر .
والروية في الألفاظ لكن . ولأن يكون الكلام مطبوعاً ، أولى من يكون

مصنوعا . إلا أن يكل الخاطريشوائب المعلوم ، ويكون الكلام مع ذي قدر عظيم ، فيروى في الاختصار ، ففي الاكثر عثار ، يفضي الى ضجر إن استرذل ، والى ملل إن استثقل . وقد قيل : أول العي الاختلاط ، وأسوأ القول الافراط . ولذلك قيل الحصر خير من الهذر ، لأن الحصر يضعف الحجة ، والهذر يثقل المهجة . وقال عبد الحميد : العاقل للسانه عاقل . وقيل في مشور الحكم : إذا تم العقل نقص الكلام .

وعذلك في الافعال أن لا تعاقب إلا على ذنب ، ولا تغفو إلا عن إنابة ، ولا يبعثك السخط على اطراح المحاسن ، ولا يحملك الرضا على العفو عن المساوي . حكى عن سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام أنه قال : اعطيت ما اعطى الناس وما لم يعطوا ؛ وعلمت ما علم الناس وما لم يعلموا . فلم أعط شيئا أفضل من الحق في الرضا والغضب ، والقصد في الغنى والفقر ، وخشية الله في السر والعلانية . وقد قال بعض الحكماء : « من سكرات السلطان الرضا عن بعض من يستوجب السخط ، على بعض من يستوجب الرضا . » ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ؛ كذلك لا يستوي المحسن والمسيء . وقد قيل : أخبث الناس ، المساوي بين المحاسن والمساوي . فاجتذب بافعالك ما ناسبها ، وقابل بمجازاتك ما أوجبها ، واجعل جزاء الافعال بحسبها من احسان واساءة ، يستوجب بهما ثواب وعقاب ؛ فان لميلك ورضاك حكما سواء ، إن وصلت عليه خرجت عن المجازاة الى التبرع بالصلة ، وأنت في تبرعك بخير ، وفي مجازاتك مضطر . وقد قال الحسن البصري : المؤمن لا يحيف على من يبغيض ، ولا يأثم في من يحب . فأما التقريب والابعاد : فيجوز أن يعتبر بالسخط والرضا ؛ اذا لم تحط بهما ذوي الاقدار ؛ وترفع بهما أهل الخمول ؛ لأن لك خيارك أن تبتدىء بتقريب من أردت ، وابعاد من كرهت ، اذا سلم رأيك من تقريب ذي النقص وابعاد ذي الفضل : فتستطر تقريب الناقص وابعاد الفاضل ؛ وان كان التشا كل مركزا في الغرائز . وقد قال بعض

البلغاء : لا تصطنع من خانة الأصل : ولا تستصحب من فاته العقل : لأن من لا أصل له يغش من حيث ينصح ، ومن لا عقل له : يفسد من حيث يصلح . وذلك بما يعسر توقيه . ويفوت تداركه وتلافيه ، وليكن وفاؤك بالوعد حتماً ، وبالوعد حزمًا ؛ لأن الوعد حق عليك ؛ والوعد حق لك على غيرك ؛ فكنت فيه على خيارك ، فمن أجل ذلك لم يحز إخلاف الوعد ؛ وإن جاز إخلاف الوعد . وقد قال أحد الشعراء :

وإني وإن أوعدته أو وعدته لمخاف إيعادي ومنجز موعدى
لكن ينبغي أن يقترب بخلف الوعد عذر حتى لا يهون وعيدك ليكون
نظام الهيبة به محفوظا ، وقانون السياسة فيه مضبوطا ؛ فأظهره ان خفى لتكون
باخلاف وعيدك معذورا ؛ وبغفوك عنه مشكورا ؛ وقد روى عن النبي صلى
الله عليه وسلم أنه قال : ما زاد أحد بالعفو إلا عزاً . وللوعد والوعد
شرطان : أحدهما ، أن يكونا مستحقين ما أوجبهما من احسان واساءة ، والثاني
أن تقترب بتقديمهما على الثواب والعقاب مصلحة في ترغيب وترهيب ؛ فإن
لزم تقديم الثواب والعقاب على الوعد والوعد ، كان الوعد تقصيراً والوعد عجزاً .
وقد قال بعض الحكماء : الوعد مرض المعروف ، والانجاز برؤه ، والمطل تلفه .
وقال بعض البلغاء : اذا احسن القول فاحسن الفعل ، ليجمع لك مزية اللسان
وثمره الاحسان ، فانك لا تخلو في خلفه من ذنب تكتسبه أو عجز تلتزمه . وليكن
فعلك أكثر من قولك ، فإن زيادة القول على الفعل دناءة وشين ، وزيادة الفعل على
القول مكرمة وزين ، ولا تجعل لغضبك سلطانا على نفسك ، يخرجك من الاعتدال
الى الاختلاف ؛ فإن يسلم بالغضب رأي من زلل ، وكلام من خطئ ، لأن ثورته
طيش معر ، ونفرتة بطش مضر ، لأنه يخرج عن التأديب الى الانتقام ، وعن
التقويم الى الاصطلام . ولذلك قيل : أول الغضب جنون ، وآخره ندم . وقال
ابن عباس : لم يمل الى الغضب إلا من اعياه سلطان الحجة . وقال بعض السلف

إياك وعزة الغضب ، فانها تفضى بك الى ذل الاعتذار . وقال بعض الحكماء :
 من كثر شططه كثر غلطه . وقال بعض الشعراء :
 ولم أر للأعداء حين اختبرتهم عدواً لعقل المرء أعدى من الغضب
 وليكن غضبك تغاضبا ، تملك به عزمك ، وتقوم به خصمك . فاسلم
 من جور غضبك وتقف على اعتدال تغاضبك . فقد قيل في بعض صحف
 بنى اسرائيل : اذا كان الرجل ذا غضب تواترت عليه الوضائع ؛
 فكلمها اشتد غضبه ازداد بلاء . وقال بعض الحكماء : الغضب يصدىء
 العقل . وكتب كسرى ابرويز الى ابنه شيرويه : إن ظلة منك تسفك دما ،
 وإن أخرى منك تحقن دما ، وإن نفاذ أمرك مع ظهور كلامك ؛ فاحترس في
 غضبك من قولك أن يخطئ ، ومن لونك أن يتغير ، ومن جسدك أن يخف ؛
 فان الملوك تعاقب قدرة ، وتعفو حلما . وقد يقترن بالغضب لجأج يساويه في
 معرفته ، ويشاركه في مضرته ؛ لأن اللجأج الترام الخطأ وإطراح الثواب . فدع
 عنك لجأج الألد الخصم ، وتجنب عواقب النذل القدم ، وتابع الرأي فيما
 اقتضاه ، فلن يقبح بك العدول اليه بعد لجأجك ، ولأن تتنفع بالرأى أولى
 من أن تستعز باللجأج . وقد قال بعض الحكماء : من استعان بالرأى ملك ،
 ومن كابد الأُمور هلك . وقال ابن المقفع : دع اللجأج فانه يكسر عزائم العقول .
 وقيل في مشور الحكم : الظفر لمن احتج لا لمن لج . وقيل فيه : اللجوج يدخل
 فيما ليس منه خروج .

واعلم أن الجدد والهزل ضدان متنافران ؛ لأن الجدد من قواعد الحق
 الباعث على الصلاح . والهزل من مرجح الباطل الداعى الى الفساد ؛ فصار
 فرق ما بين الجدد والهزل ، هو فرق ما بين الحق والباطل ؛ وتنافر الاضداد
 يمنع من الجمع بينهما . فاذا انفردت باحدهما كنت للآخر تاركا . وقد قيل الحق
 مفروض ، والباطل مرفوض . وقال على كرم الله وجهه : العقل حسام قاطع
 والحلم غطاء سابغ ، فقاتل هواك بعقلك . واستر خلل خلقك بحلمك ، واستعمل

الجد ينقد إليك الحق ، ويفارتك الباطل ، ولا تعدل الى الهزل فيتبعك الباطل ، وينافرك الحق. ولقلبا اثبتت هبة الجد وتكاملت هبة الهازل ، والهبة أس السلطنة . وحكى عمرو بن مرة أن رجلا من قریش قال لعمر بن الخطاب رضى الله عنه : لن لنا ، فقد ملأت قلوبنا هبة ، فقال أفي ذلك ظلم ؟ قال : لا . قال : فزادني الله في صدوركم مهابة . وقال حكيم الهند : ليكن فيك مع طلاقك تشدد ، كيلا يجترأ عليك بالطلاقة ، وينفر منك بالتشدد ؛ فاما الهزل فيكون من سخف أو بطر يحل عنهما من ساس الرعايا ، ودبر الممالك . قال بزرجهر : الهزل آفة الجد ، والكذب عدو الصدق ، والجور مفسدة الملك . وقال ملك الهند للاسكندر ، وقد دخل بلاده : ما علامة دوام الملك ؟ قال : الجد في كل الامور . قال : فما علامة زواله ؟ قال : الهزل فيه . وقد قيل : من أبطرت النعمة وقره زوالها . وليس الكبر والعنف جدا ، ولا التواضع واللطف هزلا ؛ وربما تداسست هذه الاخلاق بغلبة الهوى ونازع الفطرة ، فخرج صاحبها بالجد كبرا وعنفا ، ليكون بهيبة الجد أحق ، ومن سخف الهزل ابعد ؛ وهذا غير محسوس ، لأن الكبر والتواضع من شيم النفوس كالسخاء والبخل والجد والهزل من أفعالها كالحق والباطل ؛ فتباعدا في السبب واختلفا في المسبب . وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « اذا أراد الله بعبد خيرا جعل له وادعا من نفسه » . وقيل في مشور الحكم : اذا عرفت نفسك لم يضرك ما قيل فيك .

وربما استبكد الجد خاطر المجد ، فاستروح ببعض الهزل ليستعين به على مصابرة الجد . فقد قيل في مشور الحكم : الهم قيد الحواس . وحكى عن أبي الدرداء أنه قال : اني لآستجيم نفسي بالشيء من الباطل ، ليكون أقوى لها على الحق . وقيل في مشور الحكم : ما أكثر من نهى فأغرى ، فلا بأس أن يستسر منه في زمان راحته ، وأوقات خلوته ، بمقدار دوائه من دائه ، فان السكال ملال ، وليس للهلل حزم ولا عزم . وليكن فيما

يتعلل به من الهزل محافظا على دينه وصيانة مروءته ، ويخرج هذا القدر عن حكم ماذم من الهزل ، لانه عون على ما يحمد من الجد . كما قال الشاعر :

أفد طبعك المكدود بالجدراحة يحجم وعلاه بشئ من المزح
ولكن إذا أعطيته المزح فليكن بمقدار ما يعطى الطعام من الملح

وكما تنافر الجد والهزل ، كذلك تنافر الصدق والكذب ، ضدان متنافران تختلف عليهما ، وتفترق نتائجهما . فالصدق من لوازم العقل ، وهو أس الدين ؛ وقوام الحق . والكذب من غرائز الجهل ، وهو زور يقترب من زور ، ان التبتت أوائله انتهكت أو اخره ، وان جر التباسه نفعا ، عاد انتهاكه ضررا ، فلم يسلم من معرة زور ، ومضرة غرور . وقد روى عقبة ابن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أعظم الخطايا اللسان الكذوب » وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لان يضعى الصدق - وقلبا يفعل - أحب إلى من أن يرفعنى الكذب - وقلبا يفعل - . ووجدت لاسماعيل بن داود عليهما الصلاة والسلام فى سفر حكمته انه قال : الذى يلج بالكذب يرعى الرياح . وهذا من أوضح الامثال بيانا وعيانا .

فصل

(فى معنى الوزارة)

واذا مضت هذه الفصول فى مقدمات الوزارة فاسمها مشتق من معناها . واختلف فيه على ثلاثة أوجه ، أحدها : انه من الوزر وهو الثقل ، لأنه يحمل عن الملك أثقاله . والثانى : انه مشتق من الأزر وهو الظهر ، لأن الملك يقوى بوزره كقوة البدن بظهره . والثالث . أنه مشتق من الوزر وهو الملبأ ومنه قوله تعالى : (كلا لا وزر) أى لا ملبأ . لأن الملك يلبأ إلى رأيه ومعوته ، لان عليه مدار السياسة واليه تفوض الاموال . وقد قال بعض ملوك الفرس : الوزراء ساسة الاعمال ، وحازة الاموال .

وإذا كان كذلك فالوزارة ضربان : وزارة تفويض تجمع بين كفايى السيف والقلم . ووزارة تنفيذ : تختص بالرأى والحزم . ولكل واحدة منهما حقوق وشروط .

فأما وزارة التفويض الجامعة بين كفايى السيف والقلم ، فهى أعم نظرا ، وأنفذ أمرا . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خلق الله الدنيا للسيف والقلم ، وجعل السيف تحت القلم » . وهذه الوزارة هى الاستيلاء على التدبير ، والعقد ، والحل ، والتقليد ، والعزل ، فاما العقد ، فيشتمل على شرطين : تنفيذ واقدام ، وأما الحل فيشتمل على شرطين : دفاع وحذر ، فصار الحل والعقد هنا أحد شرطى هذه الوزارة يشتملان على أربعة شروط : تنفيذ ، ودفاع ، واقدام ، وحذر . ولكل شرط منها فصل يشتمل على فصول .

فاما الفصل الاول ، وهو التنفيذ . فهو أس الوزارة ، وقاعدة النيابة ، وهو الأخص بكفاية القلم في مصالح الملك واستقامة الأعمال ، ويشتمل على أربعة أقسام : أحدها تنفيذ ما صدرت به أوامر الملك ، فعلى الوزير فيها حقان : أحدهما أن يتصفحها من زلل في ابتدائها ، ويحرسها من خلل في أثنائها ، ليرده عن زللها باللطف ، ويقوى عزمه على صوابها بالاحكام . وقد قال افلاطون : أول رياضة الوزير أن يتأمل أخلاق الملك ومعاملته ، فان كانت شديدة فظة ، عامل الناس بدونها ، وان كانت لينت مطلقة عاملهم بأقوى منها ، ليقرب من العدل في سعيه ، والثانى تعجيل امضائها للوقت المقدر لها ، حتى لا يقف فيوحش ، لأن وقوف أوامره يوحش ، وهو مندوب للتنفيذ دون الوقوف . وقد قال حكيم الهند : العجلة فى الأمر خرق ، وأخرق من ذلك التفريط فى الأمر بعد القدرة عليه . وقال بعض حكماء العرب : كم من عزيز أذله خرقه ! ومن ذليل أعزه خلقه ، ودرك هذا التقليد عائد على الملك دون الوزير .

والقسم الثانى تنفيذ ما اقتضاه رأي الوزير من تدبير المملكة فعليه فى امضائه حقان : أحدهما أن يراعى أولى الأمور فى اجتهاده وأصوبها فى رأيه ، لانه مندوب

لا صلحها ومأخوذ بأصوبها . والثاني أن يطالع الملك به ان جل ،
 ويجوز أن يطوبه عنه ان قل ، ليخرج عن الاستبداد المنفر ، ويسلم من الحقد
 المؤثر . وقد قال حكيم الهند : الاحقاد مؤثرة ، حيث كانت ، وأخوفها ما كان
 في أنفس الملوك ، لأنهم يدينون بالانتقام ، وهرن الطلب بالوزير مكرمة
 وغفرا ، فان عارضه الملك في رأيه بعد المطالعة به لم يستوحش من معارضته
 لانه ملك مستنيب ، وظان مستريب ، وقابل بين رأيه ومعارضته فيه ،
 واستوضح منه أسباب المعارضة بلطف ، ان خفيت . فقد قيل : الكلام اللين
 مصائد القلوب ، فان وضع صوابها ، توقف عن رأيه وشكره على استدراك
 زلله ، وتلافي خلله ، وقد من عليه إذ صفح ولم يؤنب ، وان كان الصواب
 مع الوزير تلتطف في ايضاح صوابه ، وكشف علله وأسبابه ، فان ساعده على
 امضائه أمضاه ، وكان درك تنفيذه عائدا على الوزير دون الملك ، وان لم
 يساعده عليه توقف عنه انقيادا لطاعته . فقد قال بعض السلف : من ضن
 بعرضه فليدع المراء . وقال : خل الطريق لمن لا يفيق ، ويكون درك وقوفه
 عائدا على الملك دون الوزير .

والقسم الثالث تنفيذ ما صدر عن خلفائه على الاعمال التي
 فوضها إلى آرائهم ، ووكلاها إلى اجتهدهم ، فان تفردوا بتنفيذها
 أمضاها لهم ، ولم يتعقبها ما لم يتحقق زللهم فيها . وكان درك تنفيذها
 عائدا على العمال دون الوزير ، وان وقفوها على تنفيذ الوزير ، فعليه
 في تنفيذها حقان : أحدهما أن يستكشف عن اسبابها ليعلم خطأها من صوابها :
 والثاني تقوية أيديهم ونفي الارتياب عنهم ، فان ظهور الارتياب يخنيهم . وقد
 قال حكيم الفرس : ليس أحد أبعد من الخير من اثنين منزلتهما واحدة ، وعللها
 مختلفة ، أحدهما من لا يثق بأحد ، والثاني من لا يثق به أحد ، فان نفذها لهم
 حين لم يتحقق زللهم فيها ، كان درك تنفيذها عائدا على العمال دون الوزير ،
 وإن وقفها كان درك وقوفها عائدا على الوزير دون العمال .

والقسم الرابع تنفيذ أمور الرعايا على ما ألفوه من عادات ومعاملات، واختلفوا فيها حتى اختلفوا بها ؛ لأن الناس مجبولون على الحاجة الى أنواع لا يقدر الواحد أن يقوم بجميعها ، فخولف بين همهم لينفرد كل قوم بنوع منها ؛ فإختلفوا بها فيقوم الزراع بمزارعهم ؛ ويتشاغل الصناع بصنائعهم . ويتوفر التجار على متاجرهم . وقد قال حمير الملك لوزيره : الناس أربع طبقات طبقة للفروسة ألحقهم بالشرف ، وطبقة لاقامة الديانة ألحقهم بالكفاية ، وطبقة للزراعة والعمارة أجرهم على الانصاف ، وطبقة للهن لا تحلم من الاحسان . وعليه في تنفيذها لهم حقان : أحدهما أن لا يعارض صنفا منهم في مطلبه ؛ والثاني ان لا يشاركه في مكسبه . وربما كان للسلطان رأي في الاستئثار من أحد الاصناف فينقل اليه من لا يألفه فيختل النظام بهم فيما نقلوا عنه وفيما نقلوا اليه . لأن تمييزهم بالهام الطباع اعدل في ائتلافهم من التصنع لها ، وربما ضن السلطان عليهم بمكاسبهم فتعرض لها اوشاركهم فيها ، فاتجر مع التجار ، وزرع مع الزراع ، وهذا وهن في حقوق السياسة ، وقدح في شروط الرياسة من وجبهين : أحدهما أنه اذا تعرض لأمر قصرت فيه يد من عداه ، فان تورك عليه لم ينهض به ، وان شو رك فيه ضاق على أهله . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « ماعدل وال اتجر في رعيته » . والثاني ان الملوك أشرف الناس منصبا ، فخصوا بمواد السلطنة لأنها أشرف المواد مكسبا ، فان زاحموا العامة في درك مكاسبهم أو هنوا الرعايا بسوء الممالك ، وعاد وهنهم عليها فاختلف نظامها ، واعتل مرامها . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اذا اتجر الراعي اهملت الرعية » . وقال بعض الحكماء : اذا لم يكن في سلطان الملك سرور الرعية ، كان ملكه ظلما . وكتب حكيم الروم الى الاسكندر : أى ملك تطلعت نفسه الى المحقرات فالموت اكرم له .

فصل

(الدفاع بمهمة الوزير)

فاما الفصل الثانى وهو الدفاع . ويشتمل الدفاع على اربعة اقسام :
أحدها الدفاع عن الملك من الأولياء ، والثانى الدفاع عن المملكة من
الاعداء ، والثالث دفاع الوزير عن نفسه من الأ كفاء ، والرابع دفاعه
عن الرعية من خوف واختلال .

فاما القسم الاول فى دفاعه عن الملك من أوليائه فيكون بثلاثة اسباب :
أحدها أن يقودهم الى طاعته بالرغبة ؛ ويكفهم عن معصيته بالرهبة ؛ فان
الرغبة والرهبة إذا تواليا على النفس ذلت لها وانقادت خوفا وطمعا ، وبهما
تعبد الله الخلق فى وعد الله ووعيده : والثانى أن يقوم بكفائتهم حتى لا ينفروا
بالقوة أو يفرقوا بالضعف ، وكلاهما قدح فى الملك لأنهم بالقوة اعداء مسطون ،
وبالضعف عجزة مستبدلون . وثبات الملك يكون بان تكون القوة للسلطان
ليصير قاهراً لهم ، ولا تكون القوة لهم فيصير مقهوراً بهم . بلغ المأمون أن
الجنبد بخراسان شغبوا ونهبوا فكتب الى عامله بها : لو عدلت لم يشغبوا ، ولو قويت
لم ينهبوا ؛ والثالث أن يحفظهم من الاغواء ، ويحرسهم من الاغراء ، وذلك
بأمرين : احدهما بالبحث عن اخبارهم حتى يعلم سليمهم من سقيمهم : والثانى
بابعاد المفسدين عنهم حتى لا يتعدى اليهم فسادهم ، فان الكف بحسب
الكشف ، والمهل زائع أو رائع ولاخير فى واحد منهما لضلال الزائع ومخاتلة
الرائع . وقد قيل فى منشور الحكم : من علامة بقاء الدولة قلة الغفلة .

والقسم الثانى فى دفاعه عن المملكة من اعدائها ؛ واعداء الملك من انفراد
ملك أو امتنع بقوة . وهم ثلاثة اصناف : ا كفاء عائلون ، وعظماء متقدمون ، وناجمة
متنافسون . فاما الا كفاء المائلون فيدفعون بالمقاربة والمسالة . وأما العظماء
المتقدمون فيدفعون بالملاطفة والملاينة . وأما الناجمة المنافسون فيدفعون

بالسطوة والمحاشنة . فان اختلاف الرتب يوجب تباين اهلها وتنافي احوالها . فان
انقاد للأعلى انقاد له الأدنى ، يدين بما دان . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم . كما تدين
تدان . . وأن ناكر نوكر وكان على وجل من سطوة العالی ومنافرة الدانی . وقد
قال بعض الحكماء : من قلت تجربته خدع ، ومن قلت مبالاته صرع . وان استغنى
عن محاربة احدثهم كف عنها وهول بها ، ولم يخرق حجاب الهيبة ؛ ولم يقطع اسباب
المراقبة ؛ ليحظى بأربعة اشياء : دعة المسائلة ، والأمن من خطر المناجزة ، وبقاء
الاموال ، وراحة الاجناد . وقد قالت القدماء : خذ بالاناة ما استقامت لك ، واقل
العافية ما وهبت لك ، ولا تعجل الى مناجزة العدو ما وجدت الى الحيلة سيلا ،
ولا تسأمن من مطاول لعدوك ، فان لك في الابطاء انتظاراً لفرصة ، وظفر أبعورة ،
وتوق طاب الظفر باللقاء ، فانه لا يكاد ينال الا بالاختار . ولتكن الرغبة منك
في طاعة عدوك لك آثر عندك من الغنيمة ، تصب به سلامة أصحابك ورعتك .
وقد قال علي بن ابي طالب رضي الله تعالى عنه : خذ على عدوك بالفضل ، فانه أحد
الظفرين . وإن دعت الضرورة الى المناجزة بعد الا عذار والانداز ، أيقظ لها عزمه
واستعمل فيها حزمه ؛ واقدم عليها بعد الاستخارة متبعاً للدين ، ومستعملاً للعدل .
فلن يعدل عنهما الا باغ مصروع ، وقد قال بعض الحكماء : من سل سيف البغي
اغمد في رأسه ، ومن أسس اساس السوء اسسه على نفسه . وليكن الحذر
جنته ، والاستظهار عدته ، وقد قال حكيم الفرس : احذر التفريط في الأمور
اتكالا على القدر ، فان لكل قدر سييا يجرى اليه ؛ فسبب النجاح العمل ، وسبب
الخيبة التفريط ، وكان يقال : تفكر قبل أن تعزم ، وتبين قبل أن تهجم ، وشاور
قبل أن تقدم . واذا وضعت الحرب اوزارها على ظهر وغلبة صفح وتألف .
فقد كتب حكيم الروم الى الاسكندر : اذا ظهرت الغلبة على قوم فضع مع اوزار
الحرب الغضب ، لأنهم في الحال الأولى اعداء ، وهم في هذه الحال حول ،
فابدلهم بالغضب رحمة ، وبالأذى احسانا .

والقسم الثالث في دفاع الوزير عن نفسه من اكفائه ، فتكون بعد
استصلاح الطرفين الا على وهو الملك ، والادنى وهم الاعوان . واكفائه ثلاثة :
واتر ، وموتور ، ومنافس .

فاما الواتر : فقد بدا بشرته ، وجاهر بعداوته ؛ وكلاهما بغى منه يؤنس
بالنصر عليه ، وقد قال سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام : سهم الظالم
يرجع عليه ، لأن عقوبته تسرع اليه ، وقد قال بعض الحكماء : من فعل الخير
فبنفسه بدأ ، ومن فعل الشر فعلى نفسه جنى . ولك في بره حقان حق في مقابلته
على ما قدم من بره ، وحق في استدفاع ما جاهر به من عداوته ، فاما حقه في
المقابلة فان عفوت عنها كنت بالفضل جدرا ؛ وإن قابلت عليها كنت في المقابلة
معدورا . وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال «من أراد أن يشرف
الله له البنيان ، وأن يرفع له الدرجات يوم القيامة ؛ فليعف عمن ظلمه ، ويصل
من قطعه ، وليعط من حرمه ، وليعلم عمن جهل عليه» وقال المتنصر : لذة العفو أطيب
من لذة التشني ، لأن لذة العفو يتبعها الحمد ، ولذة التشني يعقبها الندم ، قال الشاعر :

وليس اعتذاري من قبيح بنافع اذا قيل لي يوما وصدق قائله

فانك تلقى فاعل الشر نادما عليه ولم يندم على الخير فاعله

وأما حقه في استدفاع عداوته ، فقد أيقظك بمجاهرتة ، واوهن كيده
بمظاهرتة . وقد قيل في منشور الحكم : اوهن الأعداء كيذا أظهرهم بعداوته ؛
فاحذر بادرتة وادفع عداوته . ودفعها مختلف باختلاف طباعه في اثباته الرغبة أو
تقويمها بالرهبة . وقد قال لقمان لابنه : يا بني اعتزل الشر يعتزلك فان الشر للشر خلق . وقد
قيل في الصحف الأولى : الشرير شره عليه . وقال الحسن بن سهل وحدث القهلماني :
ثلاثة لا يصاح بهن بشيء من الخيل : العداوة بين الاقارب ، وتحاسد الاكفاء ،
والركاكة في الملوك . وثلاثة لا يستفسد صلاحهن بنوع من المكر : العبادة في
العلماء ، والقنوع في المستبصرين ، والسخاء في ذوى الاقدار . وثلاثة لا يشبع منهن :
الحياة والمال والعافية .

وأما الموتور : فقد بودى بالاساءة فصبر . وجوهر بالعداوة فأخفاها .
 فله ترة مظلوم ووثبة محتلس ، فتوقى ترة ظلامته بالاستعطاف ، وتوقى وثبة
 مخالسته بالاحتراز . وقد روى مجالد عن الشعبي عن ابن عباس عن النبي صلى
 الله عليه وسلم أنه قال : « إياكم والمشاركة فانها تدفن الغره وتظهر العره » . وقد
 قيل في امثال الحكم : ثلاثة القليل منها كثير ، النار والعداوة والمرض . قال الشاعر :
 فلا تأمن الدهر حرأ ظلمته فما ليل مظلوم كريم بنائم
 وأما المنافس فهو طالب رتبة إن نال منها سداداً من عوز يأسر ، وإن ضويق
 فيها نافر ، فارخ له عنان الأمل ، واخفض جناح منافسته بالاستنابة والعمل . لتدفعه
 بالمياسرة عن المنافسة ، وغالط به الايام فان الساعات تهدم الاعمار . وقد قيل في
 منشور الحكم : المرء بساعاته ؛ والدهر في مساعاته . ولا تجعل له فراغا يتشاغل فيه
 بمساءتك ، ويجعلك عذراً في السعى على منزلتك ، فان المضطر جسور . فان ساق
 القضاء اليه حظا كنت له مصطنعا يرعى لك حقوق الاصطناع . فقد قيل : من
 علامة الاقبال اصطناع الرجال . وقال بعض الحكماء : اصطنع الخير عند امكانه ؛
 يبق لك حمده بعد زوال ايامه ؛ واحسن والدولة لك يحسن اليك والدولة عليك ،
 واجعل زمان رخائك عدة لزمان بلائك . وان صدك القضاء عن ارادته وحجزه
 القدر عن طلبته ، كفيت ما خفته وقد أحسنت . ووصلت الى ما اردته ، وقد أجمعت .
 فقد قيل في منشور الحكم : الحوائج تطلب بالعناء ، وتدرك بالقضاء ، ثم قد أوجبت
 باحسانك شكراً ؛ واقتت باجمامك عذراً ؛ اجتذبت بهما قياد منافسك الى طاعتك ،
 وصرفته بهما عن التعرض لمنافستك ، فسيجعلك قبلة رجائه إذ لم يحظ بخير
 الا منك ، ولم يقض من زمانه وطرا الا بك . وقد قيل في منشور الحكم : من
 استصلح الاضداد بلغ المراد . وقد قيل في منشور الحكم : قيل لبعض الحكماء ما النبل ؟
 قال مؤاخاة الاكفاء ، ومداهنة الأعداء . وربما تعرض لعداوتك من قصر عن
 رتبة منافستك ؛ فاعطه من رجائه طرفا ، واقبض من زمامه طرفا ، واختبرهما فيه
 فستقف به الغاية على صلاح أو فساد ، فان صلح سوعد ، وان فسد توعد وقد

قال از دشير بن مالك: احذروا صولة الكريّم اذا جاع: والثلث اذا شبع. وقد قيل في مشور الحكم: علة المعاداة قلة المبالاة. وقال سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام لابنه: لا تستكثر أن يكون لك الف صديق فالالف قليل، ولا تستقل أن يكون لك عدو واحد فالواحد كثير. والسلامة من الزمان واهله من كذب الاماني، فاقبل ولا تستكثر: فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لو لم يصب ابن آدم من الدنيا الا الأمن والسلامة لكفى بهما داء قاتلا». وقيل في مشور الحكم: الناس عون على الصبر. وقال ابراهيم بن المهدي:

وللنفوس وان كانت على وجل من المنية آمال تقويها
فالمرء يبسطها والدهر يقبضها والنفس تنشرها والموت يطويها

والقسم الرابع: في الدفاع عن الرعية من خوف واختلال من نتائج الاهمال، وكلاهما من سوء السيرة وفساد السياسة لتردهما بين تفریط وافراط، وخروجهما عن العدل إلى تقصير أو اسراف: وهم قوام الملك المستمد وذخيرة المستعد ان أهملوا فسدوا وأفسدوا، وان حيف عليهم هلكوا وأهلكوا، فلن يستقيم ملك فسدت فيه أحوال الرعايا، لأنه منهم بمنزلة الرأس من الجسد لا ينهض إلا بقوته ولا يستقل إلا بمعوته، وعليك لهم ثلاثة حقوق: أحدها أن تعينهم على صلاح معاشهم، ووفور مكاسبهم، لتوفر بهم موادك وتعمر بهم بلادك. وقد روى عطاء عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «خير الناس أنفعهم للناس». وقال وهب بن منبه: ان أحسن الناس عيشا من حسن عيش الناس في عيشه: والثاني أن تقتصر منهم على حقوقك وتحملهم فيها على انصافك، ليكونوا على الاستكثار أحرص وفي الطاعة أخلص، وقد قيل: من خاف اساءتك اعتقد مساءتك. ولا تكلمهم في عقاير الحقوق إلى غيرك فيكونوا له أرجأ وعليه أحنأ. فقد قيل في سالف الحكم: انما يستخرج ما عند الرعية ولا تها، وما عند الجند قاذها، وما في الدين والتأويل علماؤه: والثالث، أن

(٢٢ ق)

تحوطهم بكف الاذى ومنع الايدي الغالبة منهم، لتكون لهم كالأب الرؤوف.
ويكونوا لك كالاولاد البررة؛ فانك كافل مسترعى ومستول مؤاخذ، وقد
قال النبي صلى الله عليه وسلم: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»، فله عليك
فيهم حق، وللسلطان عليك فيهم تبعه، فاغتنم بهم شكر احسانك، وجل بهم
آثار سلطانك، فان الدنيا ظل الغمام وحلم النيام، وقد قيل: من الدنيا على الدنيا
دليل. وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «كن في الدنيا كأنك غريب
أو عابر سيل». وقيل في منشور الحكم: عود الحياة في كل يوم يعتصر، وقال
بعض الحكماء: كل يوم يسوق إلى غده، وكل امرئ مأخوذ بخيانة لسانه
ويده، فاغتنم غفلة الزمان، واتهز فرصة الامكان، وخذ من نفسك لنفسك،
ونزود من يومك لغدك. وكتب حكيم الروم إلى الاسكندر: لا تكلب على
الدنيا فانك قليل البقاء فيها. ومن أحكم ما قيل في هذا المعنى قول الشاعر:

همومك بالعيش مقرونة فما تقطع العيش إلا بهم

وحلوة دنياك مسمومة فما تأكل الشهد إلا بسم

إذا تم أمر بدا نقصه توقع زوالا إذا قيل تم

ولما تاب الله تعالى على سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام، وردّ عليه
ملكه كنب على كرسيه: إذا صحت العافية نزل البلاء، وإذا تمت السلامة نجم
العطب، وإذا تم الايمان علا الخوف

فصل

(الاقدام)

(من مزايا الوزير وصفاته)

فاما الفصل الثالث وهو الاقدام. فهو في السياسة أو في شرطها، وفي الوزارة
اكفى نظريها، بظفر الاقدام وخيبة الاحجام. وقد قيل في منشور الحكم: بالاقدام
ترتفع الاقدام؛ وانما يجب الاقدام اذا ظهرت أسبابه من فرصة تنتهزها أو

قوة تجدها ، وقصدت أبوابه في إبانته وعند امكانه ، كما قال الشاعر :

إذا ما أتيت الأمر من غير بابہ ضللت وإن تقصد إلى الباب تهدي

ثم تجمع بينهما بين حزمك وعزمك ، فالحزم تدبير الأمور بموجب الرأي ؛ والعزم تنفيذها للوقت المقدر لها ؛ فإذا تكاملت شروط الاقدام من هذه الوجوه الاربعة ، لم يمنع من الظفر الاعوان القدر . وقد قيل في قديم الحكم : إذا طلب اثنان حظا ظفرك به أفضلهما دينا ، فإن استويا في الدين ظفرك به أفضلهما مروءة ، فإن استويا في المروءة ظفرك به أكثرهما أعوانا ، فإن استويا في الاعوان ظفرك به أسعدهما جدا ، فإن اثلتم من شروط الاقدام أحدها صار الاقدام تغربراً يمنع من حزم ذي اللب ، ويصد عن الظفر ما لم يغلب قدر ، فما الاقدار بقياس معتبر . وقد قال حكيم الهند : السبب الذي يدرك به العاجز حاجته ، هو الذي يحول بين الحازم وطلبته ، وقيل لبزرجمهر ما أعجب الأشياء ؟ قال : نجح الجاهل وإكداء العاقل . ودخل رجل على عبدالله بن طاهر فقال له : أيها الامير ما الذي لا يحتاج فيه إلى عزم ولا حزم ؟ فاستمعه في جوابه ثلاثة أيام . فعاد اليه بعدها وسأله . فقال له : الدولة . فقال : صدقت وما أخرج هذه الكلمة منك إلا الدولة ، ولذلك قيل في منشور الحكم الحظ يأتي من لا يأتيه .

والاقدام ينقسم قسمين : أحدهما الاقدام على اجتلاب المنافع . والثاني الاقدام على دفع المضار .

فاما الاقدام على اجتلاب المنافع ، فضر بان أحدهما . استضافة ملك . والثاني استزادة مواد . فاما استضافة الملك ، فيكون بالحزم والعزم ، إذا اقترنا برغبة ورهبة ، ولأن تكون بالاغتيال والاحتيال ، أولى من أن تكون بالقتال . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : الحرب خدعة . وقيل في أمثال الحكم : أربعة لا يركبها إلا أهوج ، ولا يسلم منها إلا القليل . مناجزة الحرب ،

وركوب البحر ، وشرب السم للتجربة ، واتبان النساء على السر . وأما استزادة المواد فيكون بالعدل والاحسان ، إذا اقترنا برفق ومياسرة ، لتكثر بهما العمارة ، وتوفر بهما الزراعة ، فان الارض كنوز الملك ، يستخرجها أعوان متطوعون ، يقنعهم الكف عنهم ، ويقطعهم العسف بهم ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « التمسوا الرزق في خبايا الارض » . يعنى الزرع ولائاً تستمد فرعاً داراً يعم خبره ؛ أولى من أن تجتث أصلاً منقطعاً يعم ضرره ، فلا تفاد لدار ، ولا لبث لمنقطع ، وما يفسده إلا المبادرة قبل أوانه ، والعجلة قبل زمانه ، وقد قيل في أمثال الحكم : الحظوظ مراتب ، فلا تعجل على ثمرة لم تدرك ، فانك تنالها في أوانها عذبة ، والمدير لك أعلم بالوقت الذي تصلح فيه ، فتق بخبرته لك ، ولا تحمل حوائج عمرك كله على يومك ، الذي أنت فيه ؛ فيضيق عليك ويشغلك القنوط عن تديرك ، فليحذر العجلة ، فيراه الناس مسيئاً ؛ وقد قيل لبعض الحكماء : من شر الناس ؟ فقال : من لا يبالي أن يراه الناس مسيئاً .

وأما الاقدام على دفع المضار ، فضربان : دفع ما اختل من الملك وله سيان : نفور وجور ، فادفع ضرر كل واحد منهما بالضد من سببه ، فان علاج كل داء بضده من الدواء ، فان كان اختلال الملك من الاهمال ايقظت له عزمك . وان كان ذلك من العجز ، استعملت فيه حزمك ، وان كان نقص المواد من النفور ، استحدثت فيه رهبتك ، وان كان من الجور ، أظهرت فيه معدلتك ، فان كان حدوث ذلك في الملك صادراً عنك ، كنت مؤاخذاً بتفريطك في الابتداء ، ومستدركا لتقصيرك في الانتهاء ، فخبرت اساءتك باحسانك ، ومحوت قبيحك بحميك ، وان كان حدوثه من غيرك ، كانت جريرة الاساءة عليه ، وكان حمد الاحسان لك ، وبان بك سوء أثره ، وبان به جميل أثرك . وقد روى عطاء بن السائب عن أبيه عن ابن عمر عن النبي

صلى الله عليه وسلم إنه قال: «الخبر كثير، وقليل فاعله». فقال بعض الحكماء: خبر من الخير فاعله، وشر من الشر فاعله

فصل

(في الحذر)

وأما الفصل الرابع: وهو الحذر فإن الدهر ثائر بطوارقه، ومنافر بنوائبه، يغدران وفي، ويقتلان هفا. ولذلك قيل في منشور الحكم: الدنيا مرتجعة الهبة، والدهر حسود لا يأتي على شيء إلا غيره. وقال عبد الحميد: أصاب الدنيا من حذرها، وأصاب الدنيا من أمنها. وقال عبد الملك بن مروان: احذروا الجديدين، فلاقدار أوقات تغضي عنها الأبصار، فإذا صادفت طوارقه غراً مسرسلًا، صار هدفاً لسهامها الصوائب، وغرضاً لمنافرة الحوادث والنوائب. وقد قال بعض الحكماء: من أعرض عن الحذر والاحتراس، وبنى أمره على غير أساس، زال عنه العز، واستولى عليه العجز، وان قدم لطوارقه حذر المتيقظ، وتلقاها بعدة المتخلف، رد بادرته بعزم ذي حزم؛ قد حلب أشطر دهره، وقام بواضح عنده. وقد قال بعض الشعراء:

ان للدهر صولة فاحذرنها لا تبتن قد أمنت الدهورا

ثم هو بعد حذره مستسلم لقضاء لا يرد، وقدر لا يصمد. وقد روى أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «احذروا الدنيا فإنها أسحر من هاروت وماروت». وقيل لبعض الحكماء: من السعيد؟ قال: من اعتبر بأمسه واستظهر لنفسه. وقال بعض الشعراء:

وحذرت من أمر فر بجاني لم يكن لي ولقيت ما لم أحذر
وللحذر حد يقف عنده، ان زاد عليه صار خوراً، كما ان للاقدام حداً، ان زاد عليه صار تهوراً، والزيادة على الحدود نقص في المحدود،

ولهما زمان ان خرجا عنه صار الحذر فشلا : والاقدام حرقا . وعارها معتبر بحزم العاقل . ويقظة الفطن . وقد قيل في مشور الحكم : أيدي العقول تمسك أئنة الأنفس . وقال بعض الحكماء : ليعرفك السلطان عند افتتاح التدبير بالحذر ، وعند وقوع الأمر بالجد . والحذر يلزم من أربعة أوجه : أحدها الحذر من الله تعالى فيما فرض ، والثاني الحذر من السلطان فيما فوض ، والثالث الحذر من الزمان فيما اعترض ، والرابع الحذر من غلبة الأعداء ومكر الدهاة .

فاما الحذر من الله تعالى ، فهو عماد الدين الباعث على الطاعة . والحذر منه : هو الوقوف على أوامره ، والالتناء عن زواجره . فيعمل بطاعته فيما أمر ، وينتهى عن معصيته فيما حظر ، فلن ترى قليل الحذر إلا متجوزاً في دينه ، طامحاً في غلوائه ، لا يرى رشداً في العاجل ، وهو على وعيد في الآجل ، مع نفور النفس منه ، وسراية الذم فيه . وقد قيل في بعض الصحف الأولى : العزة والقوة يعظمان القلب ، وأفضل منهما خوف الله تعالى ، لأن من لم تردعه خشية الله ، لم يخف الوضيعة ، ولم يحتج إلى ناصر . وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : من حاول أمراً بمعصية الله كان أبعد لما رجا ، وأقرب للحجي ما اتقى . وقال بعض الحكماء : خير الاخلاق أعونها على الورع . وقال بعض السلف : انما لك من دنياك ما أصلحت به مثالك . وقال البحري :

يا جامعاً مانعاً والدهر برمقه مفكراً أى باب فيه يطرقة
جمعت ما لا تفكر هل جمعت له يا جامع المال أياماً تفرقه

وأما الحذر من السلطان ، فهو وثاب بقدرته ، متحكم بسطوته ، يميل به الهوى فيقطع بالظن ، ويؤخذ بالارتياح ، فالثقة به عجز ، والاسترسال معه خطر . وقد قيل : ثلاثة لا أمان لهم : السلطان والبحر والزمان . وقيل : إذا تغير السلطان تغير الزمان ، والحذر منه في حالتي السخط والرضا أسلم لأنه

يستندب إذا مل ، حتى يصبر المحسن عنده كالمسيء ، فاستخلص رأيه بالنصح
واستدفع تنكره بالحذر . وقد قال بعض الحكماء : اصحب السلطان بثلاث الحذر
ورفض الدولة ، والاجتهاد في النصح ، وحذر من يكون بثلاثة أمور :
أحدها : أن لا تعول على الثقة في ادلال واسر سال ، فاجرت الثقة إلا
ندما كما قال الشاعر :

ما زلت اسمع كم من واثق خجل حتى ابتليت فصرت الواثق الخجلا
وقد قيل : الحرق الدلالة على السلطان ، والوثبة قبل الامكان . فاقبض
تفesk إذا قدمك ، وتواضع له اذا عظمك ، واحتشمه إذا آنسك ، ولن له
إذا خاشنك ، واصبر على تجنيه إذا غالظك . فهو على التجنى أقدر ، فكن على
احتماله أصبر . فربما كانت مجاملته لك مكرأ ، وتجنیه عليك عذرا ، فقد قيل في
بعض الصحف الاولى : حب الملك وهواه يشبه الطل الذي ينزل على
العشب . وقد قالت حكماء الهند : مثل السلطان في قلة وفائه للاصحاب ،
وسخاء نفسه عنهم مثل البغى ، والمكتب ، كلها ذهب واحد جاء آخر .
والعرب تقول : السلطان ذو عدوان وبدوان ، فلا تجعل له في اظهار تنكره
عليك عذرا ، فربما اعترف بالحق فوفى ، ورق بالصبر فكف ، ولذلك قيل
في أمثال كليله ودمته : صاحب السلطان كراكب الاسد يخافه الناس ؛ وهو
لمركوبه أشد خوفا . وقد روى مصعب بن منصور عن عقبة بن عامر عن
النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال : «السعيد من وعظ بغيره» . وقال شاعره
حسان بن ثابت .

ولا تأمن الدهر الفتون فأتى برأى الذي لا يأمن الدهر مقتدي
والثاني : في حذر من منه : أن تساعد على مطالبه ، وتوافق على محابه
ومشاربه : ولا تصده عن غرض ، إذا لم يقدح في دين ولا عرض ،
ولا تتوقف عن اجاته ، وان شغلك ما هو أهم . فما يقيم لك عذرا اذا وجدك

في أغراضه مقصرا . وان كنت على مصالح ملكه متوفرا : فانه اتخذك لنفسه ثم للملكه : وقد يقدم حظ نفسه على مصلحة ملكه : لغلبة الهوى : ونازع الشهوة . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : « حبك الشيء يعنى ويصم » أي يعنى عن الرشد ، ويصم عن الموعظة . فكان متوفرا على مراده : ليسلم اعتقاده لك ، فان قدحت أغراضه في دين أو عرض . سللت نفسك من وزرها ، وتحفظت من شينها ، بالتلطف في عفة عنها بما يعتاضه بدلا منها . ليسهل عليه إقلاعه عنها : فان ساعدك عليه ، سلم دينكما : وزال شينكما . وقد روى أبو حازم عن سهل بن سعد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لله خزائن للخير والشر مفاتيحها الرجال : فطوبى لمن جعله مفتاحا للخير مغلاقا للشر . وويل لمن جعله مفتاحا للشر مغلاقا للخير » . وقال بعض الشعراء :
ستلقى الذي تدمت للخير محضرا وأنت بما تأتى من الخير أسعد
وان أصر عليها لت في متاركته ، وأحجمت عن مساعدته ، وهو خداع يتدلس بالمغالطة ، ويخني بالحزم ، فاستنجد فيه عقلك ، واستعمل فيه حزمك : لتسلم من تنكره : وتخلص من وزره . فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه قال : « ان من شرار الناس عند الله يوم القيامة عبد أذهب آخرته بدنياه غيره » .
والثالث : في حذرك منه أن تذب عن نفسه وملكه بما استطعت من مال ونفس ، فانك عن نفسك تذب ولها ترب ، لأنه لا يصلح حالك : مع فساد حاله ، وأنت فرع من أصله : وهو يسترسل لثقتك بك . ويستسلم لتعويله عليك ، فقابل ثقته بأمانتك ، واستسلامه بكفايتك ، ولا تلجئه أن يياشر دفع الخوف والحذر ، فيلجئك إلى ما هو أخوف وأحذر : لأنك تخافه وتخاف ما يخافه : فيتوالى عليك خوفان ويتمالأ عليك خطران .
وقال الشاعر :

ان البلاء يطاق غير مضاعف فاذا تضاعف صار غير مطاق

فادفع خوفك منه بدفاعك عنه . تكن من الخوفين آمناً : ومن الخطرين
 سالماً . وقد قال عاصم بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما :
 كأنك لم تنصب ولم تلق شدة إذا أنت أدركت الذي كنت تطلب
 واعلم ان لسلطانك عليك حقوقاً لك عليه مثلها : فحقوقه عليك ثلاثة :
 أحدها قيامك بمصالح ملكه . وهى أربع : عمارة بلاده ؛ وتقويم أجناده ؛
 وتثمين موارده ؛ وحياطة رعيته . والثانى من حقوقه عليك قيامك بمصالح
 نفسه . وهى أربع : ادراك كفايته ؛ وتحمل عوارضه ؛ وتهذيب حاشيته ؛
 واستعداد ما يدفع به النوائب . والثالث من حقوقه عليك ، قيامك بمقاومة
 أعدائه ، وذلك بأربعة أشياء : تحصين الثغور ، واستكمال العدة ، وترتيب
 العساكر ، وتقدير الحدود ، فأد حقوق سلطانه ، ووف شروط ائتمانه ،
 واحذر بادرة مؤأخذته ان قصرت ، و سطوة انتقامه ان فرطت ، فقد قيل
 فى مشور الحكم : من فعل ما شاء ، لقي ما لم يشأ . وقال بعض البلغاء : من أولع
 بقبح المعاملة أوجع بقبح المقابلة . واعلم ان بادرة الانتقام ، أسرع من ظهور
 الانعام . لان الانتقام يصدر عن طيش الغضب ؛ والانعام يصدر عن إنالة
 الكرم ، فربما همم الانتقام قبل الحذر ان تم على مداومة الحذر . ولذلك قال
 أبو يزيد الطائى :

والخير لا يأتىك مجتمعاً والشر يسبق سيله مطره

وقد قيل فى حكم الفرس : ما أضعف طمع صاحب السلطان فى السلامة .
 وذلك انه ان عفى جنى عليه العفاف عداوة الخاصة ، وان بسط يده جنى
 عليه البسط السنة المنتصحين ، فلزمك بذلك أن يكون حذرك أغلب من
 رجائك ، وخوفك أكثر من أمنك ، ولئن تكدر بهما العيش فهما إلى
 السلامة أدعى . وقد قال بعض الحكماء : بالصبر على ما تكره تنال ما تحب ؛
 وبالصبر على ما تحب تنجو مما تكره .

فاما مايقابلها من حقوقك على سلطانه فثلاثة . أحدها : معونتك على نظرك ؛ وذلك بأربعة أشياء : تقوية يدك : وتنفيذ أمرك ، وإطلاق كفايتك ، وإن لا يجعل لغيرك عليك أمراً . وقد قال سابور بن ازدشير في عهده الى ابنه هرمز : ينبغي للوزير أن يكون قوي الأمر ؛ مقبول القول ؛ يمنعه مكانه منك من الضراعة لغيرك ، وتبعثه الثقة بك على بذل النصيحة لك ، ويشجعه مايعرف من رأيك على مقاومة أعدائك ، وأحذرك أن تنزل بهذه المنزلة من سواء من خدمك . والثاني من حقوقك عليه : أن تثق منه بأربعة أشياء . أن لا يؤاخذك بغير ذنب ؛ ولا يطمع في مالك من غير خيانة ؛ وأن لا يقدم عليك من دونك ، ولا يمكن منك عدواً . عهد ملك إلى ابنه فقال : انك لن تصل إلى إحكام ماتريده من تدبير ملكك إلا بمعونة وزرائك وأعوانك ؛ فأعنيهم على طاعتك بمباشرتك ؛ وعلى معونتك بمساعدتك . والثالث من حقوقك عليه : أن يحفظك في منزلتك في أربعة أشياء : أن لا يرتاب بباطنك و ظاهره سليم ؛ فيؤاخذك بالظن ويعجز عن دفعه باليقين ، فليس يؤاخذ بضمائر القلوب إلا علام الغيوب . قيل لكسرى بن قباد : إن قوماً من خواصك قد فسدت سرائرهم . فوقع : أنا أملك الاجساد دون النيات ، وأحكم بالعدل لا بالرضى ، وأفحص عن الاعمال لا عن السرائر . والثاني أن لا يستبدل بك ونظرك مستقيم ، فتقل ثقتك ويضعف نشاطك ، ولا تجد من نفسك نهوضاً بما كلفك ؛ فإن دواعي الطبع أبلغ من مصنوع التكلف ؛ وقد اتخذك لاستقامة وجدها بك ، فاذا أضاع حقه بالاستبدال ظلم نفسه وكان من غيرك على خطر . وقد قال كسرى : الوزارة أبعد الأمور من أن تحتل غير أهلها ، لأن الوزير من الملك بمنزلة سمعه وبصره ولسانه وقلبه ، لأنه مغلق الابواب مستور عن الأبصار . ليحفظه في أمواله . ويستتر خلله في أفعاله ، وحقيق بمن كان بهذه المنزلة أن يكون محفوظاً ومحوظاً . والثالث

أن لا يؤاخذك بدرك ما جره القضاء وساقه القدر؛ فيجعلك غرضاً في معارضة خالقه . و هل أنت فيه إلا كمثل فكيف تكون أفعال الله ذنوباً لعاده . وقد قال بعض الحكماء : الأمور تطلب بالعناء وتترك بالقضاء . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أراد الله تعالى انفاذ قضائه وقدره سلب ذوى العقول عقولهم حتى ينفذ فيهم قضاؤه وقدره » . والرابع : ان لا يملك ما ليس في قدرتك ؛ ولا يكلفك ما ليس في طاقتك ؛ فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها . وما ذلك إلا من دواعي التجنى ومبادئ التكر . قال حكيم الروم : أول ما يبتدي به تغير الملك في العين . فإذا ازداد خرج إلى اللسان . فإذا ازداد خرج إلى اليد . فقد وضع بهذه الجملة مقابلة حقوقك عليه بمقوقه عليك . وقد قال المعتصم : من طلب الحق بما عليه أدركه ، غير أن حقوقك عليه موضوعة على المؤاخنة بأقلها ، لاستطالته عليك بالقدرة وقصورك عنه بالنيابة ؛ فكن على ما اقتضاه مناب الوزارة ، واعطه ما استحقه بسلطان الملك ، فينجح سعيك له إكداء سعيه عليك . وقد وصف موبدان موبذ في كتاب الملوك فقال : هم ، أعينهم المصونة عندهم ؛ وآذانهم الواعية ؛ وألسنتهم الشاهدة ، لأنه ليس أحد أسعد من وزراء الملوك إذا سعدت الملوك ، ولا أقرب إلى الهلكة من وزراء الملوك إذا هلكت الملوك ، فترفع التهمة عن الوزراء إذا صارت نصائحهم للملوك نصائحهم لأنفسهم ؛ ويعطهم اليقين بهم حين صار اجتهدهم للملوك اجتهدهم لأنفسهم ، فلا تنهم روح على جسد ولا يتهم جسد على روح ، لأن زوال الفهما زوال نعمتهما ، والثام الفهما صلاح صاحبهما . وأما حذرک من الزمان : فإنه يتقلب بألوانه ، ويخشن بعد ليانه ، فيسلب ما أعطى ، ويفرق ما جمع . وقد روى أبو حازم عن أبي بكر رضى الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « انظروا دور من تسكنون ، وأرض من تزرعون ، وفي طرق من تمشون » . وقال بعض الحكماء : الدنيا

ان بقيت لك لم تبق لها . وقيل في مشور الحكم : من عتب على الزمان طالت معتبته ، ومن لم يتعرض للنوائب تعرضت له . وقال بعض البلغاء : ان الدنيا تقبل اقبال الطالب ؛ وتدبر ادبار الهارب : لا تبقى على حالة ولا تخلو من استحالة ؛ تصلح جانباً بافساد جانب ؛ وتسر صاحباً بمساءة صاحب ؛ فالكون فيها خطر ، والثقة بها غرر . وقد قال قيس بن الخطيم :

ومن عادة الايام أن صروفها إذا سر منها جانب ساء جانب
وحذرک من زمانک يكون من أربعة أوجه :

أحدها : أن لا تثق بمساعدته ، ولا تركز إلى مياسرته ، فتغفل عن الحذر والاستعداد ، فربما انعكس فاقترس ، وخافض فاختلس . وقد قيل : للدهر صروف ، لست عنها بمصروف . قال أبو العتاهية :

ان الزمان وان ألا ن لأهله لمخاشن
تخطوبه المتحرکا ت كأنهن سواكن

والوجه الثاني : أن تنتهز فرصة مكنتك ، بفعل الجليل وغرس الصنائع ، واسداء العوارف . ليكونوا لك ذخراً في النوائب ، وخلفاً في العواقب ، ولا يلبيك استكفاؤك عن الاستظهار ، ولا يمنعك استغناؤك عن الاستكثار . فقد قيل : المرء ابن يومه ، فليتنبه من نومه . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « اغتتم خمساً قبل خمس . شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل عدملك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك » . وقال سعيد بن سلم :

إنما الدنيا هبة وعوار مسترده
شدة بعد رخاء ورخاء بعد شدة

والوجه الثالث : أن تكف نفسك عن القبيح ؛ وتقبض يدك عن الاساءة ؛ لتكفي رصد الترات ، وغوائل الهفوات ، فتأمن من وجلك ؛ وتسلم

من زللك . ولا تتناول بالقدره ، فتغفل وأنت مطلوب . وتأمن وأنت مسلوب . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « اتبع السيئة الحسنة تمحها » . وقيل في بعض الصحف الاولى : ويل للآئمة لأن الشقاء لازم لهم إلى يوم وفاتهم ، والآب الاثيم يلغنه بنوه إذا كانوا صالحين ، لأنهم يعيرون به . وقال بعض الحكماء : باعتزالك الشر يعتزلك . وبالنصفة يكثر الواصلون . وقال مضر بن ربيعي : وهو من الأمثال السائرة :

الخير أبقى وان طال الزمان به والشر أخبث مأوئع من زاد
والوجه الرابع : ان تستعد لآخرتك ، وتستظهر لمعادك ، ولا تغتر بالأمل فيجثك الفوت ، ولا تلتهك الدنيا فتصدك عن الآخرة ، فقل من لا يسها فسلم من تبعائها لهفوات غرورها ، وعواقب شرورها . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « يا عجبا كل العجب للمصدق بدار الخلود وهو يسعى لدار الغرور » . وقيل في منشور الحكم : طلاق الدنيا مهر الجنة ، فكفر معاصيها بالتوبة ، واجبر مساويها بالطاعة ، ولا تضع حظك فيها ، ولا تنس نصيبك منها ، واحسن كما احبب الله اليك . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « الناس غادبان ، فغاد نفسه فعتقها ، وموثق نفسه فوبقها » . روى ابو موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « على كل مسلم صدقة . قالوا : فان لم يجد . قال : يعين ذا الحاجة الملهوف . قالوا : فان لم يفعل . قال : يأمر بالمعروف وينه عن المنكر . قالوا : فان لم يفعل . قال : همك عن الشر فانها صدقة »

واما الحذر من أهل الزمان : فلا أن الانسان محسود بالنعمة ، مغبوط بالسلامة ، والناس على اربعة اطوار متباينة
احدها : خير عاقل يسالم بخيره ويساعد بعقله . فالظفر به سعادة والاستعانة به توفيق : فاجتهد ان لا يفوتك - وإن كان قليل الوجود -

لتحظى بخيره وتسعد بعقله . وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « استرشدوا العاقل نرشدوا ، ولا تعصوه فتندموا » . وقال بعض الحكماء : من خير الاختيار صحة الاخبار ، ومن شر الاختيار صحة الاشرار ، وقل ان يكون العاقل الخير إلا متحلياً بالعلم متزينا بالأدب . وقد قال بعض الحكماء : لأدب إلا بعقل ، ولا عقل إلا بأدب ، ومثلهما كمثل الروح والجسد فالجسد بغير روح صورة ، والروح بغير جسد ريح . فاذا اجتماعا قويا فنهما وانهما ، فاذا أظفرك الزمان بمن تكاملت فضائله . ونهذبت خصائله ، فاتخذته ذخيرة نوائبك ، وعدة شدائدك . تجده كفيل صلاحها وزعيم نجاحها . قال الحواريون لعيسى بن مريم عليه السلام : من نجالس ؟ قال : من يزيد في علمكم منطقته ، ويذكركم الله رؤيته ، ويرغبكم في الآخرة عمله . والطور الثاني . شرير جاهل يضر بشره ويضل بجهله ، فاحذر مخالطته فهي اعم من السم ، وانفذ من السهم . فشره بجهله منتشر يضعف ان تورك ، ويقوى ان شورك ؛ فاكف شره بالابعاد ، ولا تقره بالتقريب ، فيلحقك بضرري شره وجهله . وقد قيل في مثور الحكم : من الجاهل صحة ذوى الجهل . وقيل في بعض اسفار بنى اسرائيل : ابعد عن الجاهل لتجد الراحة ، فان حمل الرمل والملح والحديد اسهل من المشوى مع الرجل الجاهل ؛ وضرر الجاهل اعم من ضرر الشر ؛ لأن قانون الشر معلوم ؛ وقانون الجاهل غير معلوم . وقد قيل : الجاهل مفرط أو مفرط

والطور الثالث : خير جاهل يسالم بخيره ويضل بجهله ، فقارنه ان شئت لخيره ولا تستعمله لجهله . لتكون بخيره موسوما ، ومن جهله سليما . فقد قال عبد الحميد : لكل شيء باب ولباب النفوس الالباب

والطور الرابع : شرير عاقل وهو الداهية المكر ، يستعمل في الخطوب اذا حزبت على حذر من مكره ، ويتارك في الدعة على استدفاع شره . وقد

روى عاصم عن ذر عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال: «ان الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر». ومثل هذا يستكفي بمؤنة تدمه؛ ومراعاة ترضيه، فانه كالسبع الضاري ان اجعته هاج؛ وإن أشبعته لان، ليكون مذخورا للحاجة. فان للزمان خطوبا لاتدفع الا بشرار اهله. كما قال حذيفة بن اليمان لرجل: أيسرك ان تغلب شر الناس؟ قال: نعم؛ قال: انك لن تغلبه حتى تكون شرا منه. فتعده لخطوب الشر اذا طرقت فانه بها اخبر؛ وعلى دفعها أقدر؛ ولأهلها اقهر؛ فان الحديد بالحديد يفلح. ويستكف الى جنبها بما يدفع بادية شره؛ ويقطع غائلة مكره؛ وان كانت ضراوة الشر أجذب، فطباع النفوس اغلب. وقد قال بعض الحكماء: مخالطة الاشرار خطر، والصبر على صحبتهم كركوب البحر الذي من سلم يبدنه من التلف فيه، لم يسلم بقلبه من الحذر منه. فان وجدت من هذا الداهية فتورا في همته، وقصورا في منته؛ كانت سراية مكره انزر؛ وتأثيره في الخطوب ايسر. وان كان على الهمة قوي المنة يتناول الى معالي الامور، كانت سراية مكره أوفر، وتأثيره في الخطوب اكثر. فاعطه في كل حال من أمره من الحذر والسكون؛ بحسب ما تقتضيه همته وتبعث عليه منته. ليكون قانونك مستقيما؛ ومن دهاء مكره سليما؛ لا يئالك خور من سرف، ولا استرسال من تقصير، قد جعل الله لكل شيء قدرا. فهذا تفصيل ما اشتمل عليه العقد والحل والله أعلم

فصل

(التقليد والعزل)

واما تفصيل ما اشتمل عليه التقليد والعزل؛ وهو الشطر الثاني. فالتقليد على ضربين: تقليد تقرير؛ وتقليد تدبير. فاما تقليد التقرير فهو فيما يستأنف

انشاء قواعده . و يبتديء تقرير رسومه . وهو على ثلاثة اقسام
احدها : أن يكون في خاص يقدر الوزير على مباشرته ، فالوزير اخص
بتقريره واحق بتنفيذه . لأنها اصول مؤبده من خواص نظره . فان قلده
عليها واستتاب فيها كان تقصيرا منه فيما جل ، ومعدورا فيه ان قل . ولم
يكن لمن قلده تنفيذ تقريره الا عن اذنه ، وإلا كان عزلا خفيا . لأنه يصير
ملتزما وقد كان ملزما ، ومحكما وقد كان حاكما

والقسم الثاني : ان يكون التقليد فيما بعد عنه ويمكن استيماره فيه ،
فيجوز أن يستنب في تقريره ويكون موقوفا على امضاء الوزير وتنفيذه .
ولا يجمع المستتاب بين الأمرين ليكون التقليد مقصورا على التقرير
والتنفيذ ؛ كان فيه متجوزا إلا أن يؤمر به فيصير الأمر متجوزا إلا عن
اضطرار يزول معه حكم الاختيار

والقسم الثالث : ان يكون التقليد فيما بعد عنه ويتعذر استيماره فيه .
فيجوز ان يستنب فيه من يجمع بين تقريره وتنفيذه ، اذا تكملت فيه ثلاثة
شروط : احدها الكفاية التي تنهض بما في التقرير . والثاني : الهية التي يطاع
بها في التنفيذ . والثالث : الامانة التي تكف عن الاسترشاء والخيانة . بعد
تكامل الشروط المعبرة في جميع الولايات وهي ثلاثة : العقل والديانة
والمروءة . فلا فسحة في تقليد من اخل بأحدها لقصوره عن حقها وخروجه
من اهلها . وانما يختلف ماسواها باختلاف الولايات وإن كانت هذه
مستحقة في جميعها . وقد قال كسرى ابرويز : من اعتمد على كفاة السوء ؛ لم
يخل من رأى فاسد . وظن كاذب ، وعد وغالب . وقد قال بعض الحكماء :
لا تستكفين مخدوعا عن عقله ؛ والمخدوع من بلغ به قدر لا يستحقه ، وأثيب
ثوابا لا يستوجه

واما تقليد التدبير : فهو النظر فيما استقرت رسومه وتمهدت قواعده

وهو مشترك بين الوزير وبين الناظر فيه : لكن يختص الوزير بمراعاته ،
والناظر بمباشرة . وهو ضربان : احدهما ندير الاجناد ، والثاني تدير الاموال
فاما تدير الاجناد فلا يستغني الوزير عن تقليد سفير فيه ؛ وإن
كانوا يلاقونه ليحفظ بالسفير حشمة وزارته ؛ ولا يقف اغراض اجناده ؛
وقد انصان عن لخط كلامهم وجفوة طباعهم . والاغلب على تديرهم الرأي
والسياسة فيعتبر في المختار لهذا التقليد ستة شروط : احدها الهية التي تقودهم
الى طاعته ؛ لأنه يقوم بتدير ذوي سطوة فاحتاج معهم الى قوة الهية ؛
والثاني ان يكون من ذوي الرأي والسياسة ؛ ليقودهم برأيه الى الصواب
وتوقفهم سياسته على الاستقامة ؛ والثالث ان يكون متوصلا الى استعطاف
القلوب واجتماع الكلمة ؛ ليسلوا من اختلاف او منافرة ؛ والرابع ان
يكون بينه وبين الاجناد ، مناسبة في الطباع ومشكلة في الاخلاق ،
يمتازون بها في الموافقة ولا يختلفون فيها بالمباينة ؛ والخامس ان يكون
سليم الباطن صحيح المعتقد ، لأنه يصير اخص بهم ويصيرون اطوع له ؛
والسادس ما اختلف باختلاف الحال ، فان كان في زمان السلم اعتبر فيه
الاناة والسكون ، وان كان في زمان الحرب اعتبر فيه الاقدام والسطوة ؛
ليكون مطبوعا على ما يضاهاى حال زمانه . فقد قيل : خير السجايما وافق
الحاجة . فاذا ظفر بمن استكملها - وبعيد أن يظفر به إلا ان يعان بالتوفيق -
وجب تقليده ؛ ولزمت مناصفته في الحقوق التي له وعليه ليدوم ويستقيم .
وقد قيل في مثور الحكم : من قضيت واجبه أمنت جانبه . وقيل : اغن من
وليته عن الحياة ، فليس يكفيك من لم تكفه

واما تدير الاموال : فالوزير يصان عن مباشرتها ؛ وانما يحفظ دخلها
بالهية والاستظهار ؛ ويضبط خرجها بالحاجة والاضطرار . وللتقليد على كل
واحد منهما شروط

فأما شروط التقليد على مباشرة دخلها :خمسة شروط : احدها ان يكون مطبوعا على العدل ، لينصف ويتصف : والثاني ان يكون متدينا بالامانة : ليستوفي ويوفي : والثالث ان يكون كافيا ، ليضبط بكفايته ولا يضيع بعجزه : والرابع ان يكون خيرا بعمله : يعرف وجود موارده واسباب زيادته : والخامس ان يكون رفيقا بمعاملته غير عسوف ولا اخرق .

حكى ابن الاسكندر كتب الى معلمه ليستشير في عماله . فكتب اليه : من كان له عيب فأحسن سياستهم فوله الجند ، ومن كانت له ضيعة فأحسن تديرها فوله الخراج . ووصف عمر بن عبدالعزيز زياداً فقال : كان يجمع جمع الذرة ، ويحنو حنوا الام البرة . وهذه احسن سيرة لعامل ، وألطف حالة لمعامل ، يحظى به من ولاه ويسعد به من ولي عليه . وبمثلها يعم الصلاح وتم الاستقامة

واما شروط التقليد على مباشرة خرجها بعد الامانة التي هي مشروطة في كل ولاية ، فعتبرة باحوال الخرج . وينقسم ثلاثة اقسام : احدها ما كان راتبا عن رسوم مستقرة كأرزاق الجيوش ؛ فالتقليد عليه شرطان ، معرفة مقاديرها ، ومعرفة مستحقياها : والقسم الثاني ما كان عارضا عن أمور تقدمتها ، والناظر مأمور بها كالصلوات وحوادث النفقات ، فالتقليد عليه شرطان ، وقوفها على الأوامر ؛ ومعرفة اغراض الأمر : والقسم الثالث ما كان عارضا فوض الى رأي الناظر و وكل الى تقريره ، كالمصالح والنفقات والتقليد عليه اوفى شروطها ، لو قوفها على اجتهاده وتقديره ؛ فيحتاج مع الامانة الى ثلاثة شروط ، احدها معرفة وجوه الخرج حتى لا يصرف في غير حق . والثاني الاقتصاد فيه حتى لا يفضى الى سرف ولا تقصير ، والثالث استصلاح الاثمان واللاجور في غير تحيف ولا غبن

فصل

(في العزل)

وأما العزل فضربان :

أحدهما : ما كان من غير سبب فهو خارج عن السياسة . لان للافعال والاقوال أسباباً إذا تجردت عنها كان الفعل عبثاً ، والكلام لغواً لا يقتضيه رأى حصيف ، ولا توجه سياسة لبيب . وقد قيل : العزل أحد الطلاقين . فكما أنه لا يحسن الطلاق لغير سبب كذلك لا يحسن العزل لغير سبب . وإذا لم يثق الناظر باستدامة نظره مع الاستقامة عدل عنها إلى النظر لنفسه . فعاد الوهن على عمله وما يكون هذا العزل إلا عن فشل أو ملل . وقيل : ليس جزاء من سرك أن تسوءه . وقال بعض الحكماء : من حسن وداده قبح استفساده . والضرب الثاني : أن يكون العزل لسبب دعا اليه . وأسبابه تكون من ثمانية أوجه . أحدها أن يكون سببه خيانة ظهرت منه ، فالعزل من حقوق السياسة مع استرجاع الخيانة والمقابلة عليها بالزواج المقومة : ولا يؤخذ فيها بالظنون والتهم . فقد قيل : من يخن يهن . والوجه الثاني أن يكون سببه عجزه وقصور كفايته . فالعمل بالعجز مضاع . وقد قيل العجز نأثم والحزم يقطان . وهو نقص في العاجز . وان لم يكن ذنباً فلا يجوز في السياسة إقراره على العمل الذي عجز عنه . ثم روى عجزه بعد عزله ، فان كان لثقل ما تقلده من العمل ، جاز أن يقلده ما هو أسهل . وان كان لصورته وصعف حرمه لم يكن أهلاً لتقليد ولا عمل . وقد زوي عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه انه قال : لا تلمزوا أنفسكم حق من لم يازم نفسه حَقْم . والوجه الثالث أن يكون سبب اختلال العمل من عسفه أو من خرقة : فهذا العمل زائد على الكفاية وخارج عن السياسة . والوزير المقلد فيه بين خيارين . إما أن يعزله بغيره

وإما أن يكفه عن عسفه وخرقه أن كف : ويجوز أن يكون مرصداً لتقليد ما تدعو السياسة فيه إلى العسوف لمن شاق ونافر . فقد قيل : لكل بناء اس ولكل تربة غرس . والوجه الرابع أن يكون سببه انتشار العمل به من لينه وقلة هيئته ، فهذا السبب موهن للسياسة والوزير فيه بين خيارين . إما أن يعزله بمن هو أقوى وأهيب ، وإما أن يضم إليه من تكامل به القوة والهيبة ، وخياره فيه معتبر بالأصالح . ويجوز أن يقلد بعد صرفه ما لا يستضر فيه بضعفه . وقد قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : لا خير في معين مهين ولا في صديق ضئيل . والوجه الخامس أن يكون سببه فضل كفايته وظهور الحاجة إليه فيما هو أكثر من عمله ، فهذا أجل وجوه العزل وليس بعزل في الحقيقة ، وإنما هو نقل من عمل إلى عمل هو أجل منه ، فصار بهذا العزل زائد الرتبة . وقد قال بعض البلغاء : الناس في العمل رجلان : رجل يحل به العمل لفضله ورياسته . ورجل يحل بالعمل لنقصه ودنايته . فمن حل به العمل ازداد تواضعاً ويسراً ، ومن حل بالعمل ازداد به شرفاً وكبراً . والوجه السادس أن يكون سببه وجود من هو أكفأ منه ، فيراعى حال الأكفأ . فان كان فضل كفايته مؤثراً في زيادة العمل به كان من لوازم السياسة ، ولم يسغ فيها إقراره على عمله . وإن لم يؤثر في زيادة العمل كان عزل الناظر من طريق الأولى في تقديم الأكفأ ، وتخير الأعوان . وإن جاز في السياسة إقرار الناظر على عمله لنهوضه به . وقد قيل : إذا ذهب المميز هلك المبرز . والوجه السابع أن يكون سببه أن يخطب عمله من الكفاءة من يبذل زيادة فيه : فلا يجوز عزله ببذل الزيادة حتى يكشف عن سببها ، فربما يخرجها بها الباذل لرغبة في العمل أو لعداوة في العامل . فان لم يظهر لها بعد الكشف موجب لم يحز في السياسة عزله بهذا البذل الكاذب . وكان الباذل جديراً بالأبعاد لا بتدائه بالأفعال . فان ظهر موجب الزيادة لم يخل من ثلاثة أقسام : أحدها أن يكون لتقصير

الناظر فيجب عزله . والوزير بعد عزله بين خيارين : إما أن يقلد البازل ، أو يقلد غيره من الكفاة : والقسم الثاني أن يكون موجباً فضل كفاية البازل ، فيجب عزله بالباذل دون غيره : والقسم الثالث أن يكون سببها عسف البازل وخرقه : فلا يجوز في السياسة عزل الناظر ولا تقريب البازل ، فربما مال إلى الزيادة من تعاصي عن العزل فعزل ، وقد فصار هو العاسف المجازف . والوجه الثامن أن يكون سببه أن الناظر مؤتمن فيخطب عمله ضامن : فتضمن الأعمال خارج عن قوانين السياسة العادلة ، لأن المؤتمن عليها إذا كان كافياً استوفى ما وجب ، وكف عما لم يجب ، وهذا هو العدل . والضامن إن ضمنها بمثل ارتفاعها لم يؤثر ، وإن ضمنها بأكثر منه تحكم في عمله وكان بين عسف أو هرب : كأنه ضمن ليغتم لا لينغم . حكى أن المأمون : عزم على تضمين السواد وعنده عبيد الله بن الحسن العنبري القاضي . فقال له : يا أمير المؤمنين : إن الله تعالى قد دفعها إليك أمانة ، فلا تخرجها من يدك قبالة . فعدل عن الضمان

فهذا تفصيل ما تعلق بوزارة التفويض من عقد وحل وتقليد وعزل .

فصل

(وزارة التنفيذ)

وأما وزارة التنفيذ : فهي أخص ، لقصورها عما اشتملت عليه وزارة التفويض واختصاصها من عموم التفويض بأربعة قوانين :
فالفصل الأول من قوانينها : السفارة بين الملك وأهل مملكته ، لأن الملك معظم بالحجاب ، مصون عن المباشرة بالخطاب ، فاقضى أن يختص بسفير محتشم ؛ ووزير معظم ، يطاع فيما يورده عنه من الأوامر والنواهي ، ويهاب فيما يتحملة إليه من المطالب والمباغى ؛ ليكون للملك لساناً ناطقاً ، وأذنأ واعية .

وهذه السفارة مختصة بخمسة أصناف . أحدها : السفارة بين الملك وأجناده ، فيحملهم على أوامره ونواهيه ويتنجز لهم من الملك ما استوجبه وسأله ؛ ويحتاج في سفارته معهم إلى أن يجمع بين اللين والعنف ، والخشونة والطف ، لانقيادهم إلى طاعته بالرغبة والرهبة . والثاني السفارة بين الملك وعماله ، فيستوفى نظارة الاعمال ويتصحف أحوال العمال ليستدرك خلافاً ان كان ويستديم صلاحاً إن وجد ؛ ويحتاج في هذه السفارة إلى استعمال الرهبة خاصة ليكفهم عن الخيانة ويعثهم على الامانة . والثالث السفارة بين الملك ورعيته ليتصدى بانصافهم ؛ ويصغى إلى ظلاماتهم ، فيمضى ما تيسر له وينهى ما تعسر عليه . ويحتاج في هذه السفارة إلى استعمال اللين والطف ، ليصلوا إلى استيفاء الظلامة ، ويستدفعوا ذل الاستزامة . والرابع السفارة في استيفاء حقوق السلطنة التي للملك وعليه من غير مباشرة قبض ولا تنقيص . ويحتاج في هذه السفارة إلى الرهبة فيما يستوفيه للملك ، وإلى اللطف فيما يتنجزه من الملك . والخامس السفارة في اختيار العمال ومشاركة الاعمال ، لينهى حال من يرى تقليده وعزله من غير أن يباشر تقليداً ولا عزلاً ، لأن التقليد والعزل داخل في وزارة التفويض ويخرج عن وزارة التنفيذ ، والملك هو الذي يأمر بالتقليد والعزل إن لم يباشره . وشروط هذه السفارة : أن يكون جيد الخدس ، صحيح الاختيار ، قليل الاغترار ، عارفاً بكفاءة العمال ، ومقادير الاعمال ، ليحمد اختياره ويقل عثاره .

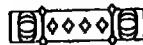
فصل

(الرأي والمشورة)

والفصل الثاني من قوانين هذه الوزارة : أن يمد الملك برأيه ومشورته ، فان الملك مع جزالة رأيه وصحة رويته محجوب الشخص عن مباشرة

الأمور . فصار محبوب الرأي عن الخبرة بها . فاحتاح الى بارز الشخص بالمباشرة . ليكون بارز الرأي بالخبرة . فليس الشاهد كالعائب : ولا المخبر كالمعين . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ليس الخبر كالمعاينة » . والوزير أخص بهذه المرتبة ، فكان أحق بالرأي والمشورة . وذكر في كتب الفرس : إن للوزير على الملك ثلاثاً : رفع الحجاب عنه ، وإتمام الوشاة عليه ، وإفشاء السر اليه . وقيل في حكمة آل داود : الفضة والذهب يثبتان القدم ، وأفضل منهما المشورة الصالحة ، وللوزير أن يستشير فيما يشاور فيه الملك اذا لم يكن سراً مكتوماً . وليس لغير الوزير أن يستشير فيما يستشار لوقوع الفرق بينهما من وجهين . أحدهما : أن الوزير مختص من مصالح الملك بما يقصر عنه من عداه ، فلزمه من الاستظهار ما لا يلزم من سواه . والثاني : ان استشارة الوزير عائدة الى مصالح الملك فعمت ، واستشارة غيره عائدة الى رأيه فخصت ، ويختلف أهل الشورى باختلاف الأرب المقصود . كما قال الحكماء : شاوروا الشجعان في أولى العزم ، والجناء في أولى الحزم ؛ لتخرج من معرفة تقصير الجبان ، وتهور الشجعان . ويتخلص لك من الرأيين نتيجة الصواب . وللوزير في المشورة حالتان . أحدهما : ان يبتدئه الملك بالاستشارة ، فيلزمه ان يشهر برأيه فيها سواء اختصت بملكه او تعدته الى غيره . وقال علي بن ابي طالب كرم الله وجهه : ربما اخطأ البصير قصده ؛ واصاب الاعمى رشده . وعلى الوزير فيها حقان . أحدهما اجتهاد رأيه في ايضاح الصواب . والثاني ابانة صحته بتعليل الجواب . ليكن محتجاً فيكني توهم الزلل ويسلم من مظنة الارتباب . والحال الثانية : ان يبتدئ الوزير بالمشورة على الملك ، فله فيها حالتان . أحدهما ان لا يتعلق بمشورته اجتلاب نفع ولا استدفاع ضرر فهذا تجوز من الوزير وتبسط على الملك ان انكره فحقه . وان احتمله ففضله . فقد قيل : كثرة النصح نهجم على سوء الظن

والثانية ان يتعلق بمشورته اجتلاب نفع واستدفاع ضرر . فان اختص بالمملكة كان من حقوق الوزارة وإن جاوزها كان من نصح الوزير . وعليه أن يذكر سبب ابتدائه ويوضح صواب رأيه . وإذا استقر الاحزم على ما اقتضاه الرأي لزمه فيما يؤدي به من الاستشارة ويبدى به من المشورة أن يكتمه على كل خاص وعام لأمرين . احدهما : ان الرأي يجب أن يظهر بالأفعال دون الأقوال لأن ظهوره بالفعل ضرر وظهوره بالقول خطر . وقد قيل : من وهن الأمر إعلانه قبل احكامه . والثاني : أنه من أسرار الملك الذي يجب أن تكتم في الصدور وتوازن في الظهور للجمع بين تأدية الامانة وطلب السلامة ، فان في إفشاء أسرار الملك خطراً به وبمن أفشاها . وقد قيل : كشف الاسرار من شيم الاشرار . فلذلك قيل : الواقعة خير من الراقية . ولقل ماتعفوا الملوك عن يفتي أسرارها ، لترده بين خيانة وجناية . وأحسن أحواله فيها ان سلم أن يغض عنه فيذل أو يخني فيقل . وقد قيل في بعض أسفار بني اسرائيل : لسان الجاهل وقلبه واحد . وقيل في مشور الحكم : لسان الجاهل مفتاح ختفه . ولذلك قيل : صدور الاحرار قبور الانسار . وقد يسعد بكتم أسرارهم من تعرى عن غيره من الفضائل ، وتجرد عما سواه من الوسائل ، لأنه قد صار خازناً لأهل الذخائر ، ومؤمناً على أنفس الودائع : إذا سلم من الادلال بها . فلن تزل الاقدام عند الملوك بمثل الادلال . ولقل مدل سلم من ذل . ولأن تزداد انقباضاً إذا بسطه فتزداد اكراماً أولى بذى الحصافة من ضدها . وقد قيل : من بسطه الادلال قبضه الادلال . وقد قيل في مشور الحكم : إذا زادك الملك تأنيساً فزده اجلالاً .



فصل

(عناية الوزير بالملك)

والفصل الثالث من قوانين هذه الوزارة : أن يكون عيناً للملك ناظرة وأذنًا سامعة ، ينهى ما شاهد على حقه ؛ ويخبر بما سمع على صدقه : لأنه قد سوهم بالملك وميز بالاختصاص وندب للبصالح . فلزم أن يتخصص بمصالح الملك ؛ فيقوم مقامه في مشاهدة ما غاب وسماع ما بعد لتقدمه على من سواه ، وعليه في ذلك ثلاثة حقوق . أحدها : أن يدهم الفحص عن أحوال المملكة حتى يعلم ما غاب كعمله بالحاضر ؛ ويعلم ما خفي كعمله بالظاهر ؛ فلا يتدلس عليه حق أمر من باطله ، ولا يشتبه عليه صدق قول من كذبه . فقد قيل : الحق أبلج والباطل للجلج ، فان قصر فيها حتى خفيت أو استرسل فيها حتى تدلست كان مؤاخذاً بجرم التقصير وجريرة الضرر . والثاني : أن لا يعجل مطالعة الملك بها ولا يؤخرها - وإن جاز تأخير العمل بها لأن عليه الانهاء ، وليس عليه العمل . وقد قيل في حكمة آل داود عليه السلام : الذي يكتم جهله ؛ خير من الذي يكتم حكيمته . وإذا كان منه بمنزلة عينه الناظرة وأذنه السامعة التي يتعجل العلم بها ، وجب أن يجري معه على حكمها ليستدرك الملك ما يجب تعجيله ، ويقدم الرؤية فيما يجوز تأخيرها ، فان أخر الوزير اعلام الملك بها وقد حسم ضررها كان للنصيحة مؤدياً ؛ ومن الملك على وجل . ومن هذا الوجه خالف وزير التفويض في قيامه بتدبيرها دون المطالعة بها ، لأن ذلك مقصور على الانهاء وذلك مندوب للعمل . والثالث : يوضح له حقائق الامور ويساوى فيها بين الصغير والكبير ، ولا يميل قريباً ولا يتحيف بعيداً ، ولا يعظم من الامور صغيراً ولا يصغر منها عظيماً ، فان من خاف

من صغار الامور أن تصير كباراً أو من كبارها أن تعود صغاراً ، أخبر بحقائقها في المبادئ مخبراً ، وفي الغايات مشيراً . فان أخبر بالغايات وأعرض عن ذكر المبادئ ، كان تدليساً لخبره بمشورته ، فلم يؤد الامانة في خبره . وان لم يكن في مناصحته . فكان بالانكار حقيقاً والذم جديراً . وقد قيل : رب صباية غرست من لحظة ، وحرب جنيت من لفظة .

فصل

(حرصه على مصالح الملك)

والفصل الرابع من قوانين هذه الوزارة : أن يفتدي راحة الملك بتعبه ، ويبقي دعتة بنصبه ، ولا يغيب إذا أريد ، ولا يسأم إذا أعيد : لانه لسان الملك اذا نطق ، وعينه إذا رمق ، ويده إذا بطش ، فلا تبعد عن دعائه ، ولا تضجر من ندائه ، لأن عوارض الملك من هو اجس أفكاره وتقلب خاطره . وقد يتجدد مع الاوقات ما لا يعرف أسبابه ، ولا تتعين أوقاته . فليكن على رصد منها حتى لا تقف به أغراض الملك فيفضي إلى نفور أو ضجر ، وهو من كل واحد منهما على خطر . لأنه قد يؤخذ بالجريرة قبل ظهورها ؛ ويعاقب على الصغيرة مثل كبيرها ، إذا حكم بالهوى ووثب بالقدرة . ومن هذا الوجه خالف وزير التفويض الذي يجوز أن يتأخر بمباشرة الامور ؛ عن مواصلة الحضور . وهذا الوزير مقصور على الحضور دون العمل فصار هذا أكثر نقلاً ؛ وذلك أكثر عملاً . وربما مل الملازمة فأعقبته أسفاً إذا فارقها ، لأن في ملازمته للملك نصبا يقتزن بهز ، وفي متاركته راحة تؤول إلى ذل ؛ وهما ماهما في التبان . فليختر لنفسه ما وافقها من عز يجتذبه بالكد . او ذل يؤول اليه بالدعة . فانه إن صبر على اعادة الملك ظفر بارادته من الملك

وهو على الضمان ان خالفها . وقد قال أنوشروان : ما استنجحت الامور بمثل الصبر، ولا اكتسبت البغضاء بمثل الكبر . وقد قيل : من خدم السلطان خدمه الاخوان . فاطرد على هذا التعليل : ان من تنكر له السلطان خذله الاخوان . لأنه متبوع على تحكمه ، ومساعد على توهمه

فهذا ما اختص بقوانين وزارة التنفيذ بعد ما قدمناه من قوانين وزارة التفويض، ثم يختلفان في اصل التقليد من ستة اوجه . احدها ان الملك يقلد وزير التفويض في حقوقه وحقوق رعيته ، ويقلد وزير التنفيذ يُمضيها بأوامر الملك وعن رأيه . والثاني أن وزارة التفويض تفتقر إلى عقد يصح به نفوذ أفعاله ؛ ووزارة التنفيذ لا تفتقر إلى عقد لأنه فيها أمور بتنفيذ ماصدر عن أمر الملك . والثالث ان وزير التفويض مأخوذ بدرك ما مضاه . والرابع ان وزير التفويض لا ينزل الا بالقول او ما في معناه دون المشاركة لأنه قد تملكها بمباشرة الأمور : ووزير التنفيذ ينزل بالمشاركة لأنه مأمور . والخامس أن وزير التفويض لا ينزل ان كف وترك حتى يستعفي الملك منها لأنه مستودع الاعمال فله ردها الى مستحقها ، ووزير التنفيذ يجوز ان ينزل بعزل نفسه بالكفو المشاركة لأنه لا شيء بيده فيؤخذ برده . والسادس ان وزارة التفويض تفتقر الى كفاية السيف والقلم لهوضه بما اوجبهما ، ووزارة التنفيذ غير مفتقرة اليهما لقصورها عنهما ، وانما يعتبر فيها ستة اوصاف وهي معتبرة في كل مدبر ذي رياسة . وهي : الأبهة ، والمنة ، والهمة ، والعفة ، والمروءة ، وجزالة الرأي . وقد كان اكثر وزراء الفرس وزراء تنفيذ ؛ واكثر وزراء ملوك الاسلام وزراء تفويض . ووزارة التفويض استسلام ، ووزارة التنفيذ استمداد



فصل

(في الحقوق)

ثم تشترك الوزارتان بعد التمييز في حقوق وعهود ، فاما الحقوق فثمانية احدها : أن يكون باعلاء الوزارة ناهضاً ، وفي مصالح المملكة راكضاً ، يقدم حظ الملك على حظ نفسه ، ويعلم ان صلاحه مقترن بصلاحه . فلن تستقيم احوال الوزير مع اختلاف حال الملك لأن الفروع تستمد اصولها ولواستقامت لكان ميلها وشيكا . وقد قيل في منشور الحكم : لا تقم بربع مستقيم . والثاني : أن يكون على الكد والتعب قادرا ، وفي السخط والرضا صابرا ، لا ينفر اذا اوحش فان نفوره عطب - ولتوصل الى راحته بالتعب والى دعته بالنصب ؛ ولذا قيل : علة الراحة قلة الاستراحة . وقال عبد الحميد : أتعب قدمك فكم تعب قدمك . فان تشاغل براحتة ومال الى لذته ، سلها بالتسكّر ؛ وعدمها بالتغير ، فضاع واضاع ، وكان من امره على خطره وقد قيل في منشور الحكم : على خطر من لم يخاطر فكيف بالمغرور المخاطر . وقد قيل في بعض اسفار بني اسرائيل : الذي يحب الشهوات ييغض نفسه . والثالث : ان يكون لاحسان الملك شاكرا ، ولا ساءته عاذرا ، يشكر على يسير الاحسان ؛ ويعذر في كثير الأساءة ، ليستمد بالشكر احسانه . ويستدفع بالعدر اساءته . فان عدل عنهما كان منه على ضدتهما . وقد قيل : احق الناس بالمنع الكفور ، وبالصنيعة الشكور . والرابع : ان يظهر محاسنه ان خفيت ويستتر مساويه ان ظهرت ، لأنه بمحاسنه معلوم موسوم ، وبمساويه مقروء مرسوم ، يشاركه في حمد محاسنه ، ويؤآخذ بدم مساويه . وربما استرسل الملك لثقته بالاحباب فار تكب بالهوى ما يصان عن اذاعته ، وكان الوزير احق بستره عليه ، لأنه الباب المسلوك اليه ، مسائر غير مجاهر . فقد

قيل : النصح بين الملاءم تقريع . والخامس : ان يخلص نيته في طاعته . ويكون سره كعلائنه : فان القلوب جاذبة تملك اعنة الاجساد : فان اتفقا والا فالقلب اغلب ، وهو الى مراده اجذب ، كما قال الشاعر :

وما زرتكم عمدا ولكن ذا الهوى الى حيث يهوى القلب تهوى به الرجل
فاخلص قلبك لطيعك جسدك ، واحسن سريرتك لتحسن علايتك : فان القلوب تم على الضمائر قهتكم استارها ؛ وتذيع اسرارها . وقد روى مجاهد عن النعمان بن بشير قال قال رسول الله صلى عليه وسلم : « في ابن آدم مضغة اذا صلحت صلح الجسد ، واذا فسدت فسد الجسد ، ألا وهي القلب » .
وقد قيل في بعض صحف بني اسرائيل : قلب الانسان يغير وجهه خيرا كان او شرا . والسادس : ان لا يعارض الملك فيمن قرب فاستبطن ولا يماريه فيمن سط و رفع ، فانه يحكم بقدرته ؛ ويأنف من معارضته . فرما انقلب بسطوته اذا عورض ؛ ومال بانتقامه اذا خولف ، فبواذر الملوك تسبق نذيرها وتدحض أسيرها ، فان سلم من الخطر لم يسلم من الضجر ، ولو سلم منها وهو نادر . ففقت المعارض مركز في الغرائز ، وكفي بالمقت عقي . وقال بزرجمهر : يجب للعاقل ان لا يجزع من جفاء الولاة وتقديمهم الجاهل عليه ، إذ كانت الاقسام لم توضع على قدر الاخطار ، فان حكم الدنيا ان لا تعطى احدا ما يستحقه ، لكن تزيد وتنقصه . والسابع : ان يتقاصر عن مشاكلة الملك في رتبته ، ويقبض نفسه عن مثل هيئته ؛ فلا يلبس مثل ملابسه . ولا يركب مثل مركبه ، ولا يستخدم مثل خدمه ؛ فان الملك يأنف ان موثل ، وينتقم ان شوكل ؛ ويرى أنها من أحواله المجتاحة ، وحشمة المستباحة ، وليعوض عنها بنظافة لباسه وجسده من غير تصنع ؛ فان النظافة من المروءة والتصنع للنساء . ليس بالسلامة محوذا . والحشمة ملحوظا . والثامن : ان يستوفي للملك ولا يستوفي عليه ، ويتأول للملك ولا يتأول عليه . فان الملك اذا

أراد الانصاف كان عدل أقدر ، وإن لم يردده فيد الوزير معه انصر . وإيما
أراد الوزير عوناً لنفسه ، ولم يردده عوناً على نفسه . فإن وجد الى مساعدته
سيلاً سارع اليها ، وإن خاف ضررها وانتشار الفساد بها تطف في كفه
عنها أن قدر : وإن تعذر عليه تطف في الخلاص منها أن قدر ، ولا يجر
بالمخالفة ما كان على رغبته في النظر . سئل بعض حكماء الروم : عن اصلح
ما عوشر به الملك . فقال : قلة الخلاف وتخفيف المؤنة ، فلذلك لم تصحب
الملك إلا على اختيارهم ، ولم يتمسكوا إلا بمن وافقهم على آرائهم . وليس
لن خالفهم حظ منهم ، وإنما كان على خطر معهم ، وإذا روعيت أحوال
الناس وجدوا لا يأتلفون إلا بالموافقة فكيف بنوي القدرة من الملك .
وقد قال الشاعر :

الناس إن وافقتهم عذبوا أولاً فإن جنهم مر
كم من رياض لا أنيس بها تركت لأن طريقها وعر
وقال بعض الحكماء : حرز الناس ثلاثة : إلفة تجمعهم ، وطاعة تمنعهم ،
ومناصحة تنفعهم . فانهم إن تفرقوا تفرقت أمورهم ، وإن عصوا ظهر نفورهم ،
وإن لم يناصحوا وغرت صدورهم

فصل

(تابع العهود)

فأما العهود الموقظة ، فسأقول وأرجو أن يقترب بالقبول . اجعل أيها
الوزير لله تعالى على شرك رقيقاً يلاحظك من زيغ في حقه ، واجعل لسلطانك
على خلوتك رقيقاً يكفك عن نقصير في أمره ، ليسلم دينك في حقوق الله
تعالى ، وتسلم دنياك في حقوق سلطانك ، فتسعد في عاجلتك وآجلتك ، فإن

تتأني اجتماعهما لك ، فقدم حق الله تعالى على حق الملك . فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من أحب ديناه أضر بآخرته ، ومن أحب آخرته أضر بديناه : فأثروا ما يبقى على ما يفنى » . وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من التمس رضى الله بسخط الناس رضى الله عنه وأرضى عنه الناس » . وقال بعض الحكماء : كل امرئ يحري من عمره الى غاية تنتهى اليها مدة أجله ، وتنطوي عليها صحيفة عمله ، فخذ من نفسك لنفسك . وقس يومك بأمسك . وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، يتمثل كثيراً بهذه الآيات :

إنما الناس ظاعن ومقيم فالذي بارئ للمقيم عظه
ومن الناس من يعيش سوياً ساهر الليل عامل اليقظه
فإذا كان ذا حياء ودين حاذر الموت واستحى الحفظه

حق عليك أيها الوزير : أن تكون بالرعية خيراً . وإلى أحوالهم متطلعاً ؛ وهم على نفسك وعليهم مستظهراً ، لأنهم من بين من تسوسه أو تستعين به لتعلم ما فيه من فضل ونقص ، وعلم وجهل ، وخير وشر ، وتحرز من غرور المتنشبه ، وتدلس المتنصع ؛ فتعطى كل واحد حقه ، ولا تقصر بذى فضل ، ولا تعتمد على ذى جهل . فقد قيل : من الجهل صحبة ذوى الجهل ومن المحال مجادلة ذى المحال .

وافرق بين الأختيار والأشرار . فان ذا الخير يبنى ، وذا الشر يهدم . واحذر الكذوب ؛ فان ينصحك من غش نفسه ، ولن ينفعك من ضرها . وقد قيل : من ضيع أمره فقد ضيع كل أمر ، ومن جهل قدره جهل كل قدر . ولا تستكفين عاجزاً بضيع العمل ، ولا شرهاً فيضرك باحتجانه . وقد قيل : ليعد من البهائم من لم تكن غايته من الدنيا إلا نفسه . ولا تغنى بمن لا يحافظ على المروءة ؛ فقل ما تجد فيه خيراً لزمه في صيانة نفسه ، وميله

الى خمول القدر . و بعيد عن أسقط حق نفسه أن يقوم بحق غيره . و صعب
على من ألف اسقاط التكلف أن يحول عنه . و قد قيل في حكم الهند : ذوا المروءة
يرتفع بها وتاركا يهبط ، و الارتقاء صعب والانحطاط هين . كالحجر الثقيل
الذي رفعه عسير وحطه يسير . و قال بعض البلغاء : أحسن رعاية ذوى
الحرمات ، و اقبل على أهل المروءات ، فان رعاية ذوى الحرمة ، تدل على كرم
الشيمة ، و الاقبال على ذوى المروءة ، يعرب عن شرف الهمة

اختبر أحوال من استكفيته لتعلم عجزه من كفايته : و احسانه من اساءته .
فتعمل بما علمت من اقرار الكافى ، و صرف العاجز ، و حمد المحسن : و ذم
المسيء . و قد قيل : من استكفى الكفاة : كفى العداة ، فان التبتت عليك
أمورهم . أو هنت الكافى ، و سلطت العاجز : و أضعت المحسن : و أغريت
المسيء . و لأن يكون العمل غائباً فيصرف اليه فكرك ، أولى من أن يباشره
عاجز أو خائن فيقبح بهما أثرك ، فاحذر العاجز فانه مضيع ، و توق الخائن
فانه يكدح لنفسه . و قال الشاعر :

إذا أنت حملت الخثون أمانة فانك قد أسندتها شر مسند

اقتصر من الأعوان بحسب حاجتك اليهم ، و لا تستكثر منهم لتكثر
بهم ، فلن يخلو الاستكثار من تنافر يقع به الخلل ، أو ارتفاق يتشاكل به العمل ،
وليكن أعوانك وفق عملك ، فانه أنظم للشمل ، و أجمع للعمل ، و أبلغ
للاجتهاد ، و أبعث على النصح . أنشدت لابن الرومى :

عدوك من صديقك مستفاد فلا تستكثر من الصحاب

فان الداء أكثر ما تراه يكون من الطعام أو الشراب

فدع عنك الكثير فكم كثير يعاف وكم قليل مستطاب

فما اللجج الملاح بمرويات و تلقى الرى فى النطف العذاب

هذب نفسك من الدنس : تهذب جميع أتباعك . و نزه نفسك عن

الطمع : تنزهه جميع خافائك . وتوق الشرفان يزبدك إلا حرصاً إن أجذبت ،
ونقصاً إن أكديت ، وهما معرة ذوى الفضل ، ومضرة أولى الحزم . وقد
قيل : بحمدك لا بكفرك . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :
« اقتربت الساعة ؛ ولا يزداد الناس في الدنيا إلا حرصاً ، ولا يزداد منهم إلا
بعداً » ، وقال محمود الوراق :

لا يغلبك غالب الحرص واعلم بأن الناس في نقص
اللبس : أخاك على تصنعه فلب مقترض على النص .
ما كدت أفحص عن أخى ثقة إلا عدمت كواعب الفحص

رض نفسك بمشاركة الأعمال ، يرهبك جميع عمالك ، وتنتظم به جميع
أعمالك ؛ ولا تكل الى غيرك ما يختص بمباشرتك طلباً للدعة ، فتعزل عنه
نفسك ، وتؤثر به غيرك ، فتكون من وفائه على غدر ؛ ومن نفسك على
تقصير ، فان العطلة عقلية ، والجواد اذا وقفرا كضته البراذن . وقال بزرجمهر :
إن يكن الشغل مجهداً ؛ فان الفراغ مفسدة . وقال عبد الحميد : ما زانك
ما أضاع زمانك . ولا شانك ، ما أصلح شانك .

اجعل زمان فراغك مصروفاً الى حالتين . احدهما : راحة جسدك ،
واجمام خاطرك ، ليكونا عوناً لك على نظرك . روى ان ابنا لعمر بن العزير
دخل عليه وهو نائم . فقال : يا أبت تنام ؛ والناس على بابك قيام . فقال : يا بني
ان نفسى مطيقي وأخاف أن أحمل عليها فتقعدي . والحال الثانية : أن تفكر
بعد راحة جسدك واجمام خاطرك فيما قدمته من أفعالك ، وتصرفت فيه من
أعمالك ، هل وافقت الصواب فيها فتجعله مثلاً لمحتذيه ، أو نالك فيها زلل
فستدرك منه ما أمكن وتنتهى عن مثله في المستقبل . فقد قيل : من فكر
أبصر . وقال بعض الحكماء : من لم يكن له من نفسه واعظ ، لم تنفعه المواعظ .
ثم أصرف فكرك بعد ذلك إلى ما تستقبله من أفعالك ؛ على أى نمطيه ؟ وماذا

تفعل فيه ؟ في تقديم الفكر على العمل ، احتراز من الزلل ؛ لتكون على ثقة من الصواب ، فان عارضتك الاقدار لم تلم . فقد قيل : الامور إذا انقضت ، كالكوكب إذا انقضت . وقال النابغة الجعدي :

ألم تعلموا ان الملامة نفعها قليل إذا ما الشيء ولى فادبرا
انخفض جناحك لمن علا ، ووطئ كنفك لمن دنا ، وتجاف عن الكبير
تملك من القلوب مودتها ، ومن النفوس مساعدتها . فقد روى عن النبي
صلى الله عليه وآله وسلم انه قال : « لا وحدة أو حش من العجب » . وقيل
لحكيم الروم : من أضيقت الناس طريقا وأقلهم صديقاً ؟ قال : من عاشر
الناس بعبوس وجهه ، واستطال عليهم بنفسه . ولذلك قيل : التواضع في الشرف ،
أشرف من الشرف

كن شكوراً في النعمة ، صبوراً في الشدة ، لا تبترك السراء ، ولا تدهشك
الضراء ، لتكافأ أحوالك ، وتعتمد خصالك ، فتسلم من طيش النظر
وسكرة البطر ؛ فانها تنجلي عن ندم أو ضرر . فقد قال بعض الحكماء : العاقل
لا يستقبل النعمة بيطر ، ولا يودعها بجزع . وقيل في منشور الحكم : اشتغل
بشكر النعمة عن البطر بها . وقيل في أمثال الهند : العاقل لا يبطر بمنزلة أصابها
ولا شرف ، كالجبل الذي لا يتزلزل وان اشتدت الريح ؛ والسخيف ببطره
أدنى منزلة ؛ كالخشيش الذي يحركه أدنى ريح .

استدم مودة وليك بالاحسان اليه ، واستسل سخيمة عدوك بعد الاحتراز
منه ؛ وداهن من لم يجاهر بك بعداوته ، ويقا تلك بمثله ، فيطني ثائرة عداوته .
ويتواطأ لك بمجاماته . قيل لبعض الحكماء : ما الحزم ؟ قال : مداواة الاعداء ،
ومؤاخاة الاكفاء .

ولا تعول على التهم والظنون ، واطرح الشك باليقين . فقد قيل :
لا يفسدك الظن على صديق قد أصاحك اليقين له . قال الشاعر :

إذا أنت لم تبرح تظن وتقتضى على الظن أردتك الظنون الكواذب
واختبر من اشتبهت حاله عليك ، لتعلم معتقده فيك ، فتدري تصنعه
منك ، فإن اللسن لا تصدق عن القلوب لما يتصنعه المداحي ؛ ويتكلفه
المداهن . كما قال عمرو بن الاهتم :

لسانك لى حلو ونفسك مرة وخيرك كالمرعاة في الجبل الوعر
وشهادات القلوب أصدق ، ودلائل النفس أوثق . وقد قيل في منشور
الحكم : للعين سر في علم ما يسر . وقال إبراهيم بن المهدي :

تظل في عينه البغضاء كاهنة فالقلب يكتمها والعين تبديها
والعين تعرف في عيني محدثها من كان من حزبه أو من أعاديه
فإن وقفت بك الحال على الارتباب ، اعتقدت المودة في ظاهره ؛
وأخذت بالحزم في باطنه . وإذا أقنعتك الاغضاء عن الاختبار ؛ فلا تتخطه ،
فأكثر الامور تمشي مع التغافل والاعضاء . وقد قال أكرم بن صيني : من
شدد نفر ، ومن تراخى تألف ، والشرف في التغافل . ولقلبا جوهر المنفى ،
وقوطع المتغافل ؛ مع انعطاف القلوب عليه ، وميل النفوس اليه ، وهذا من
أسباب السعادة وحسن التوفيق . روى معمر عن خلاد بن عبد الرحمن عن
أبيه قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : « ألا أخبركم بأحبكم إلى الله ؛
فظننا أنه يسمى رجلا . فقال : أحبكم إلى الله . أحبكم إلى الناس . ألا أخبركم
بأبغضكم إلى الله ؛ فظننا أنه يسمى رجلا . فقال : أبغضكم إلى الله أبغضكم إلى الناس . »
شاور في أمورك من تثق منه بثلاث خصال . صواب الرأي ؛

وخلوص النية ؛ وكتمان السر . فلا عار عليك أن تستشير من هو دونك ،
إذا كان بالشورى خيراً . فإن لكل عقل ذخيرة من الرأي وحظاً من
الصواب ، فتزداد برأي غيرك وإن كان رأيك جزلاً كما يزداد البحر بمواد
من الانهار وإن كان غزيراً . فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

لا مظهرة أوثق من المشاورة . وقد يفضل المستشار على المشير ، ويظفر بالرأى المشير ، لأنها ضالة يظفر بها من وجدها من فاضل ومفضل . وقد روى أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « استرشدوا العاقل ترشدوا ، ولا تعصوه فتندموا » . وعول على استشارة من جرب الأمور وخبرها ؛ وتقلب فيها وباشرها ، حتى عرف مواردها ومصادرها ، فلن يخني عليه خيرها وشرها ، ما لم يوهنه ضعف الهرم . كالذي حكى عن أكرم بن صبيغ وقد سأله قومه بنو نميم عن مادهمهم في حرب يوم الكلاب . وقالوا : أشر علينا بالرأى ، فانك شيخنا وعميدنا وموضع الرأى منا . فقال : ان وهن الكبر قد شاع في جميع بدني ، وإنما قلبي بضعة مني . وليس معي من حدة الذهن ما أبتديء له بالرأى ؛ ولكن تقولون واسمع ؛ فاني أعرف الصواب إذا مر . وعول على ذوى الاسنان فان الحكمة معهم . وقد قال الشاعر :

إن الأمور اذا الاحداث دبرها دون الشيوخ ترى في بعضها خلا
 إن الشباب لهم في الأمر بادرة وللشيوخ أناة تدفع الزلا
 واعدل عن اشارة من قصد موافقتك متابعة لهواك ، واعتمد مخالفتك انحرافا عنك ، وعول على من توخى الحق لك وعليك . فقد قيل في قديم الحكم : من التمس الرخص من الاخوان في الرأي ، ومن الأطباء في المرض ، ومن الفقهاء في الشبهة ، أخطأ الرأي وزاد في المرض واحتمل الوزر . ولا تؤاخذ من استشرت بدرك الرأي إن زل ؛ فما عليه إلا الاجتهاد وان حجزته الأقدار عن الظفر . وقد قيل في منثور الحكم : من كثر صوابه لم يعارح لقليل الخطأ

اختر لأسرارك من تثق بدينه وكتباه . وتسلم من إذاغته وادلاله . لو قدرت على أن لا تودع . برك غيرك كان أولى بك وأسلم لك . لأنك فيها بين خطر أو حذر . وقد روى عطاء عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه

عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « استعينوا على قضاء الحوائج بكتانها فان كل ذى نعمة محسود » . وقد قيل في مشور الحكم : انفرّد بسرك ولا تودعه حازماً فيزل ، ولا جاهلاً فيخون . والعرب تقول : من ارتاد لسره فقد أذاعه

ثبت فيما لا يقدر على استدراكه ، فقلبا تعقب العجلة إلا ندماً . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من تأتى أصاب أو كاد ، ومن عجل أخطأ أو كاد » . وقيل في حكم آل داود . من كان ذا تودة وصف بالحكمة . وقيل في مشور الحكم : أناة في عواقبها درك ؛ خير من عجلة في عواقبها فوت وقدم ما قدرت عليه من المعروف ؛ فقلبا يعقب الذنب إلا ندماً ، فان للقدرة غاية ولننفوذ الأمر سهاية ، فاغتنمها في مكتك تسعد بما قدمته ، ويسعد بك من أعتته . فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لكل ساع غاية وغاية كل ساع الموت » . وقد قال علي بن أبي طالب رضى الله عنه : اتهموا هذه الفرص فانها تمر مر السحاب . وقال بعض الحكماء : من أخر الفرصة عن وقتها ، فليكن على ثقة من فوتها . ولذلك قيل : خير الخيرات أوحاه وقال الشاعر :

وعاجز الرأي مضياغ لفرصته حتى اذا فات أمر عاتب القدر
وقيل في حكم الفرص : لا خير في القول إلا مع الفعل ، كما لا خير في المنظر إلا مع الخبر . وقيل في أمثال الهمد : لا يتم حسن القول إلا بحسن العمل ، كالمرضى الذى لا يبرأ بمعرفة الدواء حتى يتداوى
احذر قبول المدح من المتملقين ؛ فان النفاق مركز في طباعهم ؛ ويداجونك بهين عليهم ، فان نفقوا عليك غششت نفسك ؛ وداهنت حسك ، وصح فيك ما قيل في مشور الحكم : سوق النفاق دائمة النفاق . وقال عبد الملك بن مروان لروح بن زنباع : لا تغتابن عندي أحداً ، فانى لا أأتمنك على غيبى ، ولا تنفش

لى سراً ، فاني لا أثق بك فى مجلسى ، ولا تطرينى فى وجهى ، فاني إن قبلته
منك غبت عقلى ، وإن رددته عليك أسأت عشرين ، وأنت أعرف بنفسك
من غيرك فيما تستحق به حمداً أو ذماً ، ففانح نفسك بما فيها ، فانك أعلم بمحاسنها
ومساوئها . وقد قيل فيما أنزل الله تعالى من الكتب السالفة : عجبت لمن قيل فيه
الخير وليس فيه كيف يفرح ، وعجبت لمن قيل فيه الشر وهو فيه كيف يغضب .
وقال بعض الحكماء : من مدحك بما ليس فيك ، فحقيق أن يذمك بما ليس فيك .
وقال بعض البلغاء : من أظهر شكرك فيما لم تأت اليه ، فاحذر أن يكفر نعمتك
فيما أسديت اليه ، ففوض مدحك الى أفعالك فانها تمدحك بصدق إن أحسنت ،
وتذمك بحق إن أسأت ، ولا تغتر بمخادعة اللسان الكذوب . فقد قيل : أبصر
الناس من أحاط بذنوبه ، ووقف على عيوبه . وقد قيل فى بعض الصحف الأولى :
ثمار الحكماء لأنفسهم . كتب حكيم الروم الى الاسكندر : لا ترغب فى الكرامة
التي تنالها من الناس كرهاً ؛ ولكن فى التي تستحقها بحسن الأثر وصواب التدبير
اعتمد بنظرك احماد سلطانك ، وشكر رعيتك ، تكن أيامك سعيدة ؛
وأفعالك محمودة ؛ والناس بك مسرورين ، ولك أعواناً مساعدين ، ويبقى
بعدك فى الدنيا جميل ذكرك ، وفى الآخرة جزيل أجرك ؛ واستعذ بالله من
ضدها ؛ فيعدل بك الى صدها . فان الولايات كالحلح تظهر جواهر أربابها .
فمنهم نازل مرذول ، وصاعد مقبول . روى عن أنس بن مالك عن النبي صلى
الله عليه وسلم أنه قال : « أحسنوا جوار نعم الله تعالى : فقل ما زالت تن
قوم فعادت اليهم » . وكذلك قيل : ربما نرق شارب الماء قبل ربه . وتعرض
رجل ليحيى بن خالد بن بردك وهو على الجسر بكتاب وسأله أن يختمه . فقال :
يا غلام أختم كتابه مادام الطين رطباً . ثم أنشد :

إذا هبت رياحك فاغتنمها فان لكل خادقة سكون
ولا تغفل عن الاحسان فيها فما تدرى السكون متى يكون

إذا نلت من سلطانك حظاً ؛ وأوجبت عليه من خدمتك حقاً ، فلا تستوفه . ودع لنفسك بقية يذخرها لك فيراها حقاً من حقوقك ؛ ليكن كفيل اداها اليك ، فإن استوفيتها صرت الى غاية ليس بعدها الا النقصان . وقد قال الشاعر :

إذا لم أمر بدا نقصه توقع زوالا اذا قيل لم
واعلم انك مرصد لحوائج الناس لان يديك أزمة الامور ، واليك غاية الطاب ؛ فكن عليها صبوراً تكن بقضائها شكوراً . ولا يضجرك طلبها وقد أملك ، ولا تنفر عليه ان راجعك ، فما يجد الناس من سؤال بدا . ولخير دهرك أن ترى مرجوا ، وأنشدت لأبي بكر بن دريد رحمه الله تعالى :

لا تدخلنك ضجرة من سائل فلخير دهرك ان ترى مستولا
لا تجهن بالرد وجه مؤمل فبقاء عزك ان ترى مأمولا
واعلم بأنك عن قليل صائر خيرا فكن خيرا بروى جيلا

وقيل في الصحف الأولى: القلب الضيقل لا تحسن به الرياسة ؛ والرجل اللثيم لا يحسن به الغنى ؛ ولئن كانت الحوائج كالمغارم لمن استقلها ، فهي مغنم لمن وفق لها ، وليس بغرم ما عاد بغم ، ولا بضائع ما اصطنع في معروف . وقد روى عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « ما عظمت نعمة الله على عبد الا عظمت مؤنة الناس عليه فمن لم يحتمل مؤنة الناس عرض تلك النعمة للزوال » . و اذا جعلت الوزارة غايات الأمور اليك متتية ؛ وحوائج الناس عليك واقعة ، والقدرة لك مساعدة لا تبسط يدك ، ونفوذ امرك ، ضرت بالتوقف والاعراض بخلا بحقوق نظرك ، واسعا على فوت فطنتك . وقد قال بهرام جور في عهده الى ملوك فارس : انكم بمكان لا مصرف للناس عن حوائجهم اليكم ، فلتتسع صدوركم كاتساع سلطانكم . فان ذخرك باصطناعه ابقى ، ودفعك به تن نعمتك أوقى

وقد قال علي بن الجهم :

إذا جدد الله لي نعمة شكرت ولم يرني جاحدا
ولم يزل الله بالعائدا ت على من يحدوها عائدا
أبا جامع المال وفرته لغيرك اذ لم تكن خالدا
فان قلت اجمعه للبني قد أفقر الولد الوالد
وان قلت اخشى صروف الزمان فكن من تصاريفه واجدا

فاجعل يومك أسعد من أمسك ، وصلاح الناس عندك بصلاح نفسك ،
ومل الى اجتذاب القلوب بالاستعطاف . والى استمالة النفوس بالانصاف
تجدهم كنوز آ في شذائلك ، وحرز آ في نوائبك . وقال بعض الحكماء : من
زرع خيرا حصد أجرا ، ومن اصطنع حرا استفاد شكرا . وقيل في مشور
الحكم : خير زاد القدرة اعتقاد المن . قال الشاعر :

حصادك يوما ما زرعت وانما يدان امرؤ يوما بما هو دائن

احذر دعوة المظلوم وتوقها ، ورق لها إن واجهك بها ، ولا تبغضك
العزة على البطش فتزداد يبطشك ظلما وبغزتك بغيا ، وحسبك بمنصوره
عليك . وروي جعفر بن محمد عن ابيه عن جده رضى الله تعالى عنهم عن
النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « اتقوا دعوة المظلوم فانما يسأل الله حقه
وإن الله لا يمنع ذا حق حقه » .

كن للشهوات عزوفا تنفك من اسرها ، فان من قهرته الشهوة كان عبدا
لها ، ومن استعبده الشهوة ذل بها . روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه
قال : « من اشتاق الى الجنة سارع في الخيرات ؛ ومن اشفق من النار لهي عن
الشهوات » . وقيل لبعض حكماء الروم : ما الملك الاعظم . قال : ان يغلب
الانسان شهوته . وقيل له : ما الفرق بينك وبين الملك . قال : الملك عبد
الشهوات ، وانا مولاهما ،

فكن بالزمان خيرا تسلم من عثرته: فان الاغترار به مرد ، وقدم لمعادك
 ليق عليك مادخرته : فلن تجد الا ما قدمت ، وانك لتجازي بما صنعت ،
 واستقل الدنيا تجد في نفسك عزا فترضى اذا سخطت ، وتسرا اذا حزت ،
 ولن يذل إلا طالبا ، ولن يحزن إلا صاحبها . وقد روي عن النبي صلى الله
 عليه وسلم انه قال : « انا زعيم لمن اكب على الدنيا بفقر لاغى فيه ، وشغل
 لا انقطاع له » . وقد قال علي بن ابي طالب رضى الله عنه : احذروا الدنيا فانها
 غدارة مكاره ختارة خسارة تستكح في كل يوم بعلا ، وتستقبل في كل ليلة
 اهلا ، وتفرق في كل يوم شملا . وقال بعض الحكماء : ليكن طلبك للدنيا اضطرارا ،
 وفكرك فيها اعتبارا ، وسعيك لمعادك ابتدارا . وقال عبد الحميد : طالب
 الدنيا عليل ، ليس يروى له غليل . وقال الشاعر :

فلا جزع ان راب دهر بصرفه وبدل حالا والخطوب كذلك
 فما العيش الا مدة سوف تنقضي وما المال الا مالك وابن هالك

اجعل صلاح عملك ذخرا لك عند ربك ، وجعل سيرتك اثرا مشكورا
 في الناس بعدك لتقتدي بك الاخيار ، ويزدجربك الاشرار ، تكن بالثواب
 حقيقا ؛ وبالحمد جديرا . فقد قيل : الاغترار بالاعمار ، من شيم الاغمار ، فان يبق
 بعدك الا ذكرك في الدنيا ، وثوابك في الآخرة ، فاطفر بهما ، واغتم بقية
 عمرك لهما ، تكن سعيدا فيهما ، فان الدنيا كاحلام نائم يستحليها في غفوته
 ويلفظها بعد يقظته . وقد قيل في الصحف الاولى : احرص على الاسم الصالح
 فانه لا يصحبك غيره . وقال الجاحظ : وليت خزائنه كتب الرشيد وتصفحت
 كتبه فلم اجد كلمة الا وجدت لها نقيضة ، إلا كلمات جاءت عن فياسوف العرب
 على بن ابي طالب رضى الله تعالى عنه : قيمة كل امرئ ما يحسن . ومن جهل
 شيئا عاداه ، وان هلك امرؤ عرف قدره ، وكلما يتصور في الاوهام فالله
 بخلافه ، وبقية عمر الرجل لأثمن لها ولا قيمة ، لأنه يدرك بها ما فاته ، ويحبي
 فيها ما اماته

فاغتم أيها الوزير بقية أيامك ، باجل افعالك ؛ واستدرك فيها ماتقدم من سوء آثارك ، وكفر بها ما اسلفت من فجورك واغترارك ؛ فغواتيم الامور تعني ما سبق حتى تناساه النفوس ؛ وتتغاضى عنه العيون ، لأنها توكل بالأذى وان جل ما همضى ، واذا مدتلك الاقدار بالتوفيق ، وغالبك العقل بالتلافي ، عدلت واعتدلت . ففزت في آخرتك ، وسعدت في آجلتك . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما استودع الله احدا عقلا إلا استنقذه به يوما . فاذا عقلك عقلك عن الباطل فانت عاقل » .

وسأختم تحذيرك وانذارك ؛ وأتبع تبصيرك وافكارك ، بما اندر به الرسول صلى الله عليه وسلم فهو اعظم نذير ؛ وابلغ توبيخ وتحذير . روى عبد الله بن عبيد عن عمير الليثي عن حذيفة بن اليمان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . « ان من أشراط الساعة اذا رأيتم الناس اماتوا الصلاة واضاعوا الامانة ؛ واحلوا الربا ؛ واستخفوا بالدماء ؛ وباعوا الدين بالدنيا وشربت الخمر ؛ وعطلت الحدود ؛ واتخذوا القرآن مزامير ، واتخذت الأمانة مغنا ؛ والزكاة مغرما ، وكان الحلم ضعفا ، والولد غيظا ، وغاض الكرام غيضا ، وفاض اللثام فيضا ؛ وكان الأمراء فجرة ، والوزراء كذبة والأمراء خونة ، والقراء فسقة ؛ وكان زعيم القوم ارضهم ، وتشبه الرجال بالنساء ، والنساء بالرجال ، وكذب الصادق ؛ وصدق الكاذب ، ولعن آخر هذه الأمة اولها . فليتوقعوا نزول البلاء بهم

وقد أوجزت لك أيها الوزير ما ان كان عملك به محيطا ذكرك ، وإن كنت غافلا عنه أنذرك ، وإن يمدك بتوفيقه ، ويعينك على طاعته بجوده أمين . تم الكتاب بحمد الله وعونه وحسن توفيقه ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

هذا الكتاب

هو إحدى حلقات « سلسلة الرسائل النادرة » وهو رسالة نفيسة موسومة « بقوانين الوزارة » .

وما اخترناها إلا لشهرتها وذيوع اسمها في كتب التراجم وحسبك أنها من تصنيف إمام كبير من أئمة الأدب والبيان وأعنى به : أبا الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي . مؤلف « أدب الدنيا والدين » و « الأحكام السلطانية » و « الحاوي » و « الإقناع » وغير ذلك من أمهات الكتب في الفقه والتفسير والأدب والسياسة .

وقد أسميناها « أدب الوزير » لأنها في الواقع فصول رائعة في آداب الوزارة ورسومها وأحكامها وما للوزير وما عليه نحو سلطانه وبلاده ونفسه . وسوف تجدها متمشية في أسلوبها الرائع ومباحثها الجليلة وفق الخطة التي سار عليها في كتابه الشهير « الأحكام السلطانية » . فالرسالة إذن تتمة مباحث ذلك الإمام الجليل في فن السياسة وتدير الملك . وكلا الكتابين مرآة صادقة لتفكير العالم الإسلامي في هذا الفن الجليل الذي أصبح موضع عناية المفكرين من كتاب هذا العصر .

الناشر

